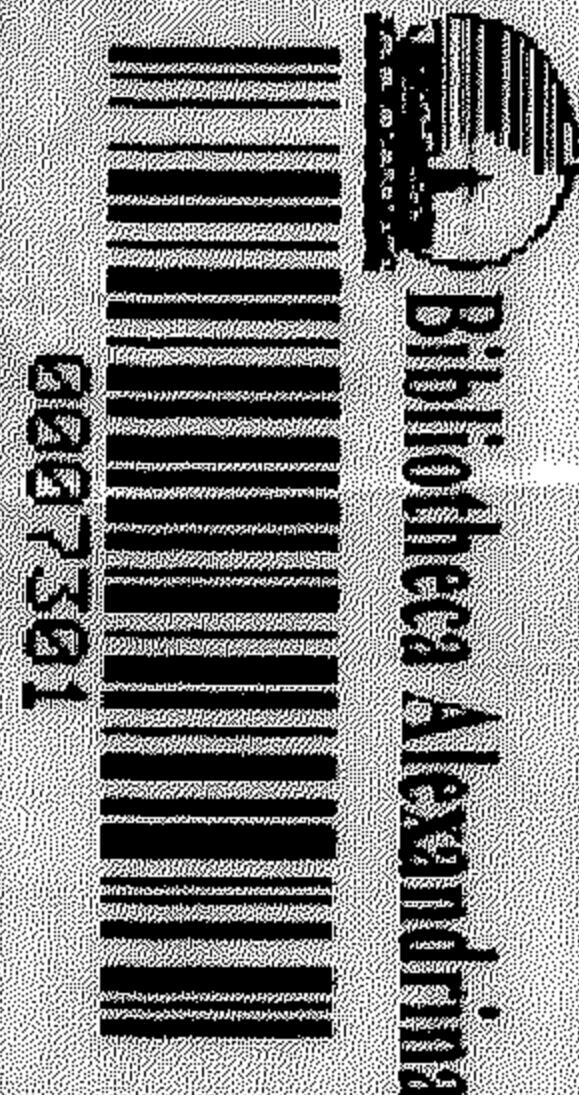


٢

المؤسسو عبد السلام بن العربي

سقوط العلمانية

بتسم
أنور اجندي



دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

سقوط العلانية

المؤيدون عند الامية العربية

٢

سقوط العلمانية

بتليم
أنور الجندري

مكتبة المدرسة

دار الكتاب اللبناني

وقائع البحث

صفحة

مدخل :	٧
١ : العلمانية في الفكر والمجتمع الغربي . . .	١٤
٢ : العلمانية في الفكر والمجتمع الاسلامي . . .	٢٦
الفصل الاول : العلمانية والعلم	٣٧
النظرية المادية	٤٩
الفصل الثاني : العلمانية والفلسفة	٦١
الفصل الثالث : العلمانية والدين	٩٣
الفصل الرابع : العلمانية والإنسان	١١٧
الفصل الخامس : موقفنا وموقف الغرب	١٣٣
الفصل السادس : منهج الإسلام في المعرفة	١٥١
(لحق) : رأي العلماء الغربيين في ترابط الدين والدولة . والدين	
والعلم في منهج الإسلام	١٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

« العلمانية » كلمة ذات أكثر من مدلول . وذات تاريخ طويل . وقد انتقلت مع الزمن معنى الى معنى آخر . وقد حاول مترجموها عن اللغات الغربية إخفاء حقيقتها ، حتى لا تصدم الحس العربي وتبقى في نطاق العلم ، وهو نطاق يرد عنها عادة الاتهام . ويبقى هدفها الحقيقي مخفياً وراء اللفظ المشتق من أقرب الأسماء الى نفوس العرب والمسلمين .

والواقع ان لفظ « علمانية » هو ترجمة للكلمة اللاتينية (Secular) ومعناها في اللغات الأوروبية « لا ديني » وقد صدق « جان ريفرو » حين قال : ان العلمانية كلمة لها رائحة البارود ، لما تثير من استجابات متضاربة متناقضة .

وقد نشأت كلمة « علمانية » وهي تتصل أساساً بالقول بالفصل بين الدين والدولة ، ومن هنا فهي كلمة تاريخية لها ارتباط بالبيئة التي استحدثتها

وفرضتها، حيث نشأت ونمت في ظل أحداث تاريخية معينة، اتصلت بأوروبا وبالدين، وعلماء الدين، وبموقف الدين، والكنيسة من المجتمعات الغربية، ومن العلم.

ثم انتقلت هذه الكلمة الى اللغة العربية، وإلى العالم الاسلامي، مع انتقال مترجمات الفلسفة المادية، وما فرضه النفوذ الاستعماري من أنظمة تتصل بالقانون، والتربية، والتعليم أساساً. وكانت الضغوط القاسية لإحلال القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية. والتعليم على النظام الغربي بديلاً للمناهج التعليمية العربية الإسلامية.

ولقد ظلت كلمة العلمانية تظهر وتختفي. وإن كانت قد وضعت موضع الأساس لكل أهداف التقريب والغزو الثقافي فترة طويلة. ظهرت آثارها في مختلف الدعوات التي حمل لواءها دعاة الاستشراق والتبشير ومن تابعهم من قادة الفكر التغريبي، وبرزت واضحة في الدعوة الى مذهب ديكرت، وإلى القول بأن الاسلام دين روحي. وإلى إدخال المذاهب الوافدة ذات الطابع المادي الى الأدب والاجتماع. وتفسير التاريخ. ولقد استقبل الفكر العربي الاسلامي هذه المذاهب والدعوات المختلفة في أول الأمر في ظروف القسر والأمر المفروض. وبدأ ان هذه الدعوات قد نمت وترعرعت. وشكلت فكر جماعات من الناس، أتيح لهم بفضل النفوذ الاستعماري أمر الصدارة في مجالات الثقافة، والتعليم، والصحافة. واستطاعت حركة اليقظة ان تحاصر هذه الدعوات. وأن تضع قاعدتها العريضة التي اجملها في ان المسلمين والعرب، ليسوا في حاجة من الحضارة الغربية إلا الى شيء واحد هو العلم التجريبي. أما نظريات النفس والاجتماع والاخلاق والدين. فإن لديهم منهجهم الاصيل الذي تشكلت عقلياتهم ونفسياتهم عليه منذ أربعة عشر قرناً. والذي ليس من العسير إخراجهم منه. ومن هنا فقد تقبل المسلمون والعرب من المناهج الأوروبية أطرها وأساليبها، وما وجدوه مشابهاً لما عندهم، او متفقاً معه،

او جاريًا على طريقه ، او دافعًا لهم الى توسيع آفاق الفهم والعلم والثقافة ، دون أن يخرجوا عن إطارهم الأصيل وفكرهم المستمد من القرآن الكريم وأصول الإسلام . غير ان دعوة التقريب والغزو ، إنما كانت ترى ان ذلك كله ليس إلا مرحلة وثبتت منها الى مرحلة أخرى . وربما كانت في تقديرهم نهائية ، وهي مرحلة الانتقال كلية الى إطارات الفكر الغربي ومنهج في مجال الفكر .

وقد جاءت نكسة ١٩٦٧ توقيتًا لهذه الصيحة التي أطلقوا عليها « علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين » وكانت الصيحة تنطوي على تحليل واضح يكشف عن المخطط المرسوم الذي بدأ ببعض الاقتباسات من الحضارة الغربية في بعض العناصر ، والذي يرى الآن انه قد جاء الوقت لإتمام الجولة باتخاذ قواعد الفكر الغربي وإطاراته الفكرية والعقلية والنفسية موضع التنفيذ . وأن أي توقف عن تحقيق ذلك سوف يصيب الذات العربية بالتمزق . ذلك ان الذات العربية لا تستطيع ان تسترجع ما اخذته ، ولا أن تجد وحدتها الممزقة إلا بإتمام الصفقة التي بدأها التغريب منذ أكثر من ثمانين عاماً حينما أدخل النظرية المادية ، والقانون الوضعي ، ومنهج التربية والتعليم الأجنبي ، وفصل بين الدين والدولة . وكانت هذه هي أول مراحل العلمانية ، وقد جاء الوقت لإتمام المرحلة النهائية من العلمنة ، وذلك بما يسمونه « تحرير الذات العربية من إطاراتها الغيبية . والإطارات الغيبية هنا تعني الاسلام بالذات . وليس الدين بعامه » .

وان العلمنة الأولى تعد اعترافاً ضمنياً بقبول العلمنة النهائية . ولا ريب ان هذه الصيحة الخطيرة في عشية نكسة حزيران ١٩٦٧ تعني ان مصدر النكسة هو تلك العقلية الغيبية (الاسلامية) . وأن تجاوز النكسة يقتضي القضاء على هذه الثنائية بين مفاهيم الاسلام التي كانت ارضية فكر هذه الأمة . وبين العلمنة الجزئية التي تداخلت الى فكرها ومجتمعها خلال هذه المرحلة .

ولا بدّ إذن من أن يلقي الفكر العربي بنفسه إلقاء كاملاً في احضان العلمانية وبغير ذلك. فإنه لن يتجاوز النكسة، ولن يستطيع أن يحقق للذات العربية وجودها. حيث إنها ستظل ممزقة الى وقت طويل. وبالجملة فإن حتمية الموقف كله تتطلب من الذات العربية أن تستسلم أمام العلمانية، وأن تتخلى نهائياً عن العقلية العربية الإسلامية، التي توصف بأنها العقلية الغيبية.

(٢)

ومن هنا تبين لنا ان العلمانية لم تكن قاصرة على أنها دعوة الى فصل الدين عن الدولة، وإنما ذلك في تقدير أصحاب الدعوة. هي المرحلة الأولى، التي تهيم الفكر والمجتمع جميعاً لخطوة حاسمة هي: «علمنة الذات العربية نفسها» على أساس ان تسقط نهائياً وإلى الأبد، كل ما يتصل بفكرها وتراثها ودينها وقيمها (القديمة كلها) وأن تعتنق المنهج العلمي، او وجهة النظر العلمية (في تعبير البعض الآخر) وهو المنهج الذي يقوم على أساس قياس النظر الى المجتمع والنفس والأخلاق والإنسان جميعاً على النحو الذي تقاس به العلوم الطبيعية على أساس الملاحظة والتجربة.

ومعنى هذا ان العلمانية (او العلمنة كما يطلقون عليها أخيراً) هي الفكرة القائلة بأنه من الممكن دراسة الانسان والمجتمع، كما تدرس الاشياء على أساس تطبيق وسائل الدرس والملاحظة التي تمارسها العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية.

ومن الحق ان يقال إن هذه الصيحة بعيدة كل البعد عن الحقيقة، وغريبة كل الغرابة عن فهم الذات العربية، ومتعدية كل التعدي في الكشف عن أسباب النكسة او علاجها. وإنما هي المطامع والأهواء، والظن بأن جدار

الفكر العربي الاسلامي قد اصبح وشيك السقوط : تلك أمانتهم الخادعة ،
التي يدحضها التاريخ والواقع تماماً .

ذلك ان الذات العربية تعرف أن طريقها الحق هو طريق الاسلام والقرآن
من خلال ذلك المنهج الاصيل المتكامل الجامع الذي هدى الانسانية الى الحق
والعدل . والذي ليس هو منهج غيبي ، فضلاً عن انه لم يخلق عقلية غيبية على
النحو الذي ينقل نقلاً من مفاهيم الأديان في بيئات أخرى ، تجري محاولة
تطبيقها عن طريق الخطأ في الفهم بأن الاسلام شبيه بها ، او عن طريق
المغالطة والهوى والادعاء . ومن الحق أن يقال ان العقلية الاسلامية العربية
ليست عقلية غيبية بالصورة التي يراد وصفها بها انتقاصاً لها ، ولكنها عقلية
متكاملة تؤمن بالترابط بين القيم بالتجريب والغيب ، والعلم والوحي والروح
والمادة ، الدنيا والآخرة . والغيب جزء من مفهوم الاسلام والعقلية العربية .
لأنه حقيقة واقعة ، ولكن القول بأن العقلية العربية عقلية غيبية . هو تجاوز
كبير ، لأن مفهوم العقلية الغيبية هو تلك التي تعتمد على السحر والخرافة
والأساطير ، وهو ما وصفت به عقلية أمم أخرى لم تعرف القرآن الذي دعا
الى البرهان والحجة ، وطالب بالنظر في الكون ، ونعى على الناس التقليد
والتبعية .

ولا ريب ان وصف العقلية العربية لأنها عقلية تستمد مفاهيمها من الاسلام ،
بأنها عقلية غيبية ، فيه خطأ كبير ، وتجاوز كبير . فالاسلام قد أقام منهجه
في المعرفة على أساس الوحي والعقل ، والايمان بالله ورسالته وكتبه وباليوم
الآخر . وجعل العقل هادياً ومرشداً ، ودعا الى عمارة الارض والسعي في
الدنيا ، وبناء الحياة بالعمل . فلا يوصف بأنه منهج غيبي . ولكنه منهج
متكامل لم يقف عند حدود المحسوس ، والمادة وحدها . ولم يؤله المادة ، او
العقل ، او الانسان ، او التاريخ . ولم تضطرب به السبل حول المعرفة دون
أن يهدي الى الحق . وما يزال يضرب في قبه لا ينتهي .

(٣)

ومن عجب ان يظن التلموديون ودعاة التغريب ان هذه الأمة تخرج عن الاسلام . وتعتنق فكراً آخر غيره ، وما هو هذا الفكر الذي تعتنقه بدلاً للإسلام . إنه ذلك الفكر المضطرب الذي أنشأ أزمة الانسان الحديث . وخلق تلك الصراعات الحادة ، والقلق ، والتمزق ، والضياح . وذوّب قلب البشرية في دوامة الألم والمرارة والخوف والجزع التي أفضت الى الجريمة والمخدر والانتحار .

وهل يمكن أن يتجاوز العرب والمسلمون فكرهم ومنهجهم وعقائدهم بعد أن أمضوا أربعة عشر قرناً يشكلهم هذا الفكر وهذا الدين ، عقولاً ونفوساً وأمزجة وأذواقاً وأحاسيس . ويصنع منهم ذلك الطابع المميز للانسان المسلم في العالم كله . هل من البساطة الى هذا الحد أن يستطيع الفكر الغربي وهو الذي نعرفه ممزقاً مضطرباً يقاسي الصراع والأزمة ، ان يسيطر على الفكر الاسلامي او يستوعبه او يحتويه ، مهما كان لظروف الاستعمار من آثار في ان تغل إرادة هذا الفكر ، او تفرض عليه فكراً وافداً ، او غزواً فكرياً . والدنيا كلها تعرف كيف ان فكر الاسلام : هو عطاء البشرية في العدل والحق والتوحيد والمساواة والحرية والإخاء . ولن ينخدع بأن هزيمة ١٩٦٧ ترجع الى الاسلام ، او الى العقلية الغيبية التي يدعون انها عقلية الاسلام . ولن ينخدع احد بأن وسيلة النصر او التحرر من الغزو . هي ان يلقي العرب والمسلمون أنفسهم في أحضان فكر عدوهم ، ذلك ان العرب والمسلمين يعلمون ان هذا الفكر الذي يوصف بالفكر العلمي ، والذي يسمى بالعلمانية . والذي يدعو الى تطبيق مناهج التجريب في علوم الطبيعة على الدراسات الانسانية ، وعلى الإجماع والاخلاق والنفس . هذا الفكر الذي احتوى الفكر الغربي المسيحي ، ليس إلا فكر المخططات التلمودية التي رسمتها بروتوكولات صهيون ،

والمسلمون والعرب يعرفون الرابطة بين هذا الفكر المستمد من هذه المخططات، وبين الغزو الصهيوني الذي أحدث هزيمة ١٩٦٧ .

ومن هنا فإن الدعوة الى علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين دعوة معروفة المصدر ، والمهدف ، والتوقيت ، وهي دعوة مردودة على أصحابها. لأن العرب والمسلمين يعلمون ان مصدر تحررهم هو فكرهم الاصيل. ومفهوم الاسلام الذي نشأهم وكونهم وعلمهم على مدى التاريخ. وأن جوهر النصر مرتبط بالتاسم مفاهيم الاسلام ، وتحرير أنفسهم من التبعية للفكر الواقع على أي صورة من صورته وإحياء فريضة الجهاد ، والتاس مصادر الشريعة الاسلامية ، وبناء التربية على النهج القرآني .

يعرف المسلمون والعرب هذا ، ويعرفون انه هو مصدر تحرر الذات العربية ، وان الاسلام الذي يعتمدونه مصدراً لهم، هو مصدر تحررهم ، وأنه هو وحده المصدر . وأن هذه المناهج الوافدة كلها لن تستطيع ان تحرر العرب والمسلمين فضلاً عن المسلمين العرب . قد شبوا عن الطوق . وكأن هزيمة ١٩٦٧ هي نقطة يقظة جديدة تقول بأنهم قد بلغوا رشدهم ، ولم تعد المذاهب الوافدة تقبلهم . وقد اصبحوا قادرين على النظر فيها دون ان تحتويهم ، او يكونوا تبعية لها .

ومن خلال هذا المنطق يبين لنا ان العلمانية لم تكن دعوة علمية خالصة لوجه الحق ، ولم تكن تستهدف تحرير الانسان العربي ، وإنما كانت تستهدف إخراجهم من ذاتيته وقيمه ومزاجه النفسي ، وتركيبه الإجماعي كله لتقذف به في أتون العالمية والأمية .

العلمانية في الفكر والمجتمع الغربي

كانت العلمانية خطوة طبيعية في الفكر الغربي نتيجة قصور المفاهيم الدينية التي كان يحملها رجاله عن مجازاة النهضة . فكان هذا القصور مع تلك الحملة الضخمة التي شنتها الكنيسة الغربية على العلم مصدراً من المصادر الهامة في زيادة التحدي الذي ردد به رجال النهضة بإقصاء الدين كلية عن محيط الفكر والمجتمع في الغرب .

وتلك قضية معروفة لها جذور وامتدادات واسعة ، ولها تاريخ طويل له مراحل متعددة ، تحول به الفكر الغربي من مرحلة الى مرحلة ، حتى وصل الى المرحلة الحاضرة ، التي غلبت فيها العلمانية والمادية ، والأمية الى مختلف ميادين الفكر والمجتمع خلال اكثر من اربعمئة عام .

ولا ريب ، لكل فكر ، ولكل أمة طوابعها ، وتحدياتها ، وظروفها الخاصة . فالمعروف ان اوروبا كانت وثنية تعيش على تراث اليونان ، في ظل الحضارة الرومانية ، حتى عرفت المسيحية التي استطاعت ان تصارع الوثنية

طويلاً حتى استقرت على الصورة التي جاءت بها تشكيلاً حواراً بين الفلسفة اليونانية ، والقانون الروماني ، وإطار من مفاهيم الدين الوافد على أوروبا ، آنذاك بتفسير غربي يختلف عن طبيعة الدين الذي أنزل إلى المسيح عيسى بن مريم . فقد كانت رسالة السيد المسيح واحدة من رسالات السماء إلى بني إسرائيل في إطار الدين الذي جاء به عيسى ، مكمل له ، وليست ناقضة إياه . وكما وصفها القرآن الكريم «ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم» غير أن رسالة عيسى فسرت بعد ذلك تفسيراً مغايراً لأصولها وحقيقتها فوضعت في إطار جديد على أنها دين عام للبشرية . وحرف مفهوم العلاقة بين الله . مالك الملك دين الرسول البشري الذي أنزل الله عليه الرسالة . ولما كانت رسالة عيسى مجموعة من الوصايا والأخلاقيات . فإنها لم تكن بالطبع منهم ديناً كاملاً ، حيث لم تكن لها شريعة مستقلة . كل هذه العوامل كانت بعيدة المدى في أحداث ما أحدثت من اضطراب في المجتمع الروماني الذي كان يعيش حضارة لها طابعها الوثني الخاص . وقد جاءت هذه المفاهيم باسم المسيحية تغزوه وتتشكل معه في إطار واحد . ومن هنا كان موقف الغرب منها . ثم موقفها هي من العلم والنهضة التي كانت قد بدأت في إطار الدفعة القوية التي قدمها الإسلام للبشرية . والتي وصلت في نهاية جولتها إلى أوروبا عن طريق الأندلس .

ومضى الفكر الغربي يشكل نفسه من جديد من خلال مفاهيم العلم التجريبي الذي قدمه الإسلام . ومن خلال المفاهيم التي كانت قد امتزجت به باسم المسيحية بالإضافة إلى جذور الوثنية اليونانية ، مما اختلط جميعه ، وحاول الانصهار في بوتقة واحدة ، وبما كان بعيد الأثر في النموذج الذي تقوم عليه الحضارة الغربية اليوم ، وهي تعاني صراعاً حاداً وأزمة عميقة تتقاسمها وتتمزقها بين العلم والوثنية من ناحية ، وبين مفاهيم الرهبانية والاباحية من ناحية أخرى .

غير ان هناك عاملاً حاسماً ، كان بعيد الأثر في الموقف كله ، ذلك هو تيقظ الحركة اليهودية في اوروبا وانبعثت مفاهيمها من التلمود والتوراة المهرقة ، وتشكل ذلك التحدي الخطير باسم الماسونية ، وما اتصل بها من حركات تغيير . كانت الثورة الفرنسية في مقدمتها . هذا العامل الذي شاء أن يسيطر على الفكر الاوروبي بعد عصر النهضة باسم عصر التنوير ، والذي جاء معارضاً معارضة كاملة للفكر الغربي المسيحي عاملاً على هدم الحكومات الاوروبية المسيحية ، وإقامة أنظمة جديدة يتاح في ظلها لليهود الخروج من الجيتو ، والحصول على حق المواطن ، كمقدمة للوثوب الى الحياة الفكرية والاجتماعية والسيطرة عليها .

ومن هنا كان هدف الماسونية ، ومخططات التلمود ، والثورة الفرنسية . هي تحطيم القوائم التي شكلتها المسيحية والكنيسة للوقوف في وجه اليهود ، وحجزهم وراء معارضة التي اختاروها ، وأقاموا فيها ، منفصلين عن المجتمعات الاوروبية يزاولون مهمتهم الأساسية في صناعة الربا والاقراض ، والسيطرة على الذهب وأعمال المال . ولم يكن في إمكان اليهودية العالمية تحطيم هذه الحواجز الضخمة التي تقف في وجه اندماجهم في المجتمعات . ثم سيطرتهم عليها بعد ذلك . إلا عن طريق الدعوة الى العلمانية . أي فصل الدين عن الدولة ، وإعطاء كل مواطن نفس الحق الذي يحصل عليه الآخرون دون نظر الى دينه . وبذلك وحده يستطيع اليهود أن يبتثوا في المجتمعات الاوروبية ويأخذوا مكانتهم . وقد يحقق لهم هذا بالفعل عن طريق الثورة الفرنسية ، وثورات مماثلة عمت اوروبا كلها ، وسرعان ما سيطروا على ميادين الفكر ، والثقافة ، والطب ، والعلم ، والصحافة ، وتركوا لغيرهم مراكز السيطرة السياسية . وإن كانوا يحركونها من خلال محافلهم الماسونية . وقد وجدوا ان سيطرتهم على الفكر والثقافة والصحافة ، بالإضافة الى سيطرتهم على المال . عامل كبير في فرص مخططهم الذي عرف من بعد . حين انكشفت أسرار (بروتوكولات حكماء صهيون) وهي السيطرة على العالم . ومن الحق ان يقال:

إن الثورة الفرنسية كانت خطوتهم الأولى . (وان الخطوتين التاليتين كانتا في إسقاط الدولة العثمانية وإقامة النظام الشيوعي في روسيا) .

ومن خلال هذه الخلفية يتبين تماماً ان الدعوة العلمانية هي نتاج يهودي تلمودي أصيل كان له أبعد الأثر في الفكر الغربي ، فقد سادته عوامل أربعة هامة : (١) نظام الاقتصاد القائم على الربا . (٢) القانون الوضعي المنفصل عن شرائع الله . (٣) التعليم اللاديني المتحرر من نفوذ الكنيسة . (٤) الديمقراطية التي تحل الايمان بالدولة محل الايمان بالعقيدة .

وهذه هي العوامل الأربعة التي فرضها النفوذ الاستعماري على العالم الاسلامي بعد احتلاله والسيطرة عليه . وذلك لتوجيهه الى العلمانية كخطوة أولى لتحقيق الهدف الكبير ، وهو علمنة المسلمين وإخراجهم كلية من إطار الاسلام . وقد قدروا النجاح في هذه الخطة على النحو الذي تحقق لهم في اوروبا بإخراج الفكر العربي والمجتمع العربي كله من إطار الدين واحتوائه داخل المخططات التلمودية التي تستهدف إقامة امبراطورية الربا في العالم كله .

(٢)

تكاد تجمع المصادر التاريخية والعلمية جميعاً على هذه الحقيقة : حقيقة هدف المخططات التلمودية من إقامة العلمانية كمنهج أساسي في العالم كله ، وتجربته الناجحة في اوروبا على النحو الذي حقق غايته على أوفى ما يكون ، ويصور هذا الدكتور اسماعيل الفاروقي في كتابه الملل المعاصرة في الدين اليهودي ^(١) فيقول : علينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يأتِ إلا نتيجة لنمو العلمانية في

(١) ص - ٤١ ، ٤٢ (الملل المعاصرة في الدين اليهودي) .

التنظيم السياسي والاجتماعي . إذ إن إقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى الى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة الأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ، ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفايتهم الشخصية لا على أساس الدين ، بل على أساس وجودهم في الوطن . فالجغرافيا والاقتصاد حلّتا محل الدين في تكوين الدولة .

ويذهب الدكتور الفاروقي الى أن (العلمانية) نظرية مسيحية أصلاً ، لأنها ثمرة دين يجعل ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، ويرى أن مملكته ليست في هذا العالم . يقول : إن العلمانية نظرية نبعت من الخبرة المسيحية ، لا من الخبرة اليهودية . فالدين اليهودي لا يفهم أن يكون العمل الاقتصادي عملاً لا يمسّه الدين بصلة ، ولا يفهم أيضاً أن يكون العمل السياسي عملاً لا يمسّه الدين .

أما المسيحي الاوروبي فقد قسم حياته الى دوائر ، وجعل بينها سدوداً تمنع أي اتصال . وتجري الحياة في كل من هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجري في الدوائر الأخرى ، فالعائلة والاخلاق الشخصية ، والدين والاقتصاد والاجتماع كل واحدة منها تؤلف ملكوتاً مستقلاً ، فالويل كل الويل إذا سمح الغربي لمبادئ الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد .

(والواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأن ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الانسان بكاملها كما هو الحال في النظرة الدينية ، فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبدأها الخاص) ولا ريب أن هذا النص يثبت عدة حقائق هامة :

الأولى : أن الفكر الاوروبي المسيحي قام أساساً على فكرة الفصل بين القيم : عدم السماح بالتقاءها .

الثانية : أنه اعتبر أن الدين علاقة شخصية بين الله والانسان ، وليس له نفوذ على عالم الاجتماع .

الثالثة : أن العلمانية بالنسبة للفكر المسيحي الاوروبي مسألة طبيعية لا تجد معارضة ولا تصطدم بحقائق ثابتة .

وهذه الحقائق الأساسية في الفكر الاوروبي المسيحي ، المستمدة من المفاهيم التي ركزها التصور المسيحي الغربي تخالف مفهوم علاقة الاسلام بالفكر العربي الاسلامي مخالفة جذرية . فالاسلام لا يؤمن بالفصل بين القيم . بل يؤكد وحدتها في نظرة متكافئة مستوعبة ، ولذلك فإن الدين عامل خاضع ، والاخلاق قاسم مشترك . وإن الاسلام كدين هو جماع بين علاقة الله بالانسان ، وعلاقة الانسان بمجتمعه ، وإن أي فصل بين هذه القيم يعرضها للاضطراب ، ويعرض الانسان للتعزق .

ومن هنا فإن الاسلام لا يقر مبدأ (العلمانية) الذي هو ثمرة من ثمار الفكر الاوروبي المسيحي الذي كان تركيباً جسوراً على حدّ تعبير توينبي آين من المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، والقانون الروماني .

وإذا كان لنا أن نستدرك على الدكتور الفاروقي في أمر هذا الفصل بين القيم وتقسيم الحياة الى دوائر منفصلة ، لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بما يجري في الدائرة الأخرى (كالعائلة والاخلاق الشخصية ، والدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والاجتماع) فإننا نقول : إن ما عرفه الغرب من الدين لم يكن إلا مجموعة من الوصايا الاخلاقية والروحية ، التي جاءت في مواجهة استعلاء المادية في المجتمع اليهودي . وإنها لذلك لم تكن تحمل منهجاً متكاملًا ، ثم كانت محاولة اليهود التلمودية في عزلها المجتمع ، وقصرها على العلاقة بين الله والانسان ، وعلى الجوانب الاخلاقية التي انحرفت الى الزهادة ، واعتزال

الحياة ، كل ذلك كان له أبعد الأثر في ذلك الدور الذي جرى بين العلم الحديث ، وهو يقتحم فتوحاته ، وبين الأساطير والغيبيات التي لا يقرها العقل ، وهي تقف في وجه النهضة ، وتحاول أن تحطم التقدم العلمي .

وهذا في الحق هو مفهوم ذلك الانفصال بين الدوائر في الفكر الاوروبي ، الذي جاء نتيجة لقصور الدين عن التكامل ، وهو أمر نجا منه الفكر العربي الاسلامي من حيث قام على أساس متين من مفهوم جامع بين الروح والمادة ، والقلب ، والعقل ، والدنيا ، والآخرة . وكان الاسلام نفسه بوصفه ديناً يجمع بين علاقة الانسان بالله ، وعلاقته بالمجتمع ، ويفتح الطريق أمام معتنقيه للكشف وال عمران ، ولاكتناه أسرار الكون ، ومن ثم كان هذا المنهج العلمي التجريبي منوطاً بالاسلام كما كانت منهج المعرفة المتكامل الجامع بين العقل والوحي ، هو ثمرة من ثماره .

(٣)

وإذا كانت فكرة العلمانية تعالج لأول مرة في بحث مستقل متكامل في اللغة العربية ، فإن المصادر التي تناولتها تجمع على أنها تستهدف الغايات الآتية :

أولاً : عزل الدين عزلاً تاماً عن المجتمع ، وإتاحة الفرصة لقيام تربية لا دينية ، وقيام نظام سياسي لا يستهدي بالشريعة ، وتأسيس الاقتصاد على أساس الربا .

ثانياً : ابعاد قطاع أصيل من الفكر الانساني ، هو جانب الروح والوحي ، وعالم الغيب ، وكل ما يتصل بالدين من اخلاق وعقائد وإيمان بالله ، وعزله عزلاً تاماً عن الفكر والحياة .

ثالثاً : إعلاء كلمة العقل والمادية ، والإلحاد ، وإقامة منهج علماني يقيس المسائل المختلفة ، سواء ما يتصل بالإنسان والمجتمع او الحياة بمقاييس الحس والعقل والتجربة وحدها .

ولقد ناقش فكرة العلمانية وقيامها في الغرب كثيرون . وعزوا سيطرة هذه الفكرة الى واقع المجتمع الغربي يقول الدكتور محمد رضوان : هذه الفكرة لم تنشأ في اوروبا إلا كردة فعل على الاخطاء التي ارتكبت من رجال الدين باسم الدين ، كاضطهاد الأقليات الطائفية مثلاً ، فالتاريخ يتحدثنا عن الحروب بين الطوائف الدينية إذ كانت الاكثية الساحقة تحاول فرض معتقدها على الاقلية . فمن هنا كان اضطهاد الكاثوليك والبروتستانت . وكذلك كان اضطهاد اليهود من قبل الدول المسيحية عامة ، بروتستانتية وكاثوليكية . هذا الاضطهاد لم يكن ليحدث ، لو أن التسامح الديني وحرية المعتقد ، كانا قاعدتين من قواعد الدولة الحاكمة في ذلك الوقت .

والأمر الذي ساعد على نجاح فكرة العلمانية في اوروبا هو عجز السلطات الدينية عن مسايرة حضارة العصر ، بشكل أن بعض المفكرين لم يترددوا بنعت الدين عندهم نعتاً محتقراً ، فاوغست كونت ، وليفي بريل اعتبراه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . وأنه ليس سوى خطوة من خطوات الانسانية نحو المبدأ العلمي الحديث .

كذلك فإن فكرة كارل ماركس : بأن الدين أفيون الشعوب . لم تكن لتتكون ، لو أن رجال الدين كانوا على المقدرة الكافية لمواجهة الحضارة الحديثة بمشكلاتها العديدة المختلفة ، فالدين برجاله في اوروبا وقف وقفة المتفرج خلال الفترة الأولى من نشوء وانتشار الأفكار والتيارات الفلسفية المعاصرة .

فالذي ساعد على نشوء العلمانية في اوروبا ، جاء نتيجة الاخطاء التي

ارتكبت باسم الدين . فأثارت بعض المفكرين عليه وسمحت لهم باغتنام الفرصة لمحاربته ، والسعي لهدمه اه .

والواقع أن الدين في الغرب كان يستطيع ان يصحح موقفه إزاء نهضة العلم ، ولكن القوى التلمودية كانت أسبق وأجراً . وقد انتهزت الفرصة لتحقيق هدفها^(١) ذلك أن المنظمات الماسونية كانت تهدف الى إسقاط الحكومات المسيحية الأوروبية التي تسيطر عليها الكنيسة ، وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذا النفوذ .

لذلك فقد كان الفصل بين الدين والدولة ، هو أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم . ومنه جاء الفصل بين الكنيسة والتعليم . وكان التعليم يجري في أحضانها . وكان الهدف من وراء ذلك إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون اضطرابهم في المجتمع ، ومنها قيود تتعلق بالزواج والملبس والعبادات . وقد كان مفهوم عصر التنوير - أو حملة التنوير على حد قول كانت - هي الإفراج عن الانسان من الوصايا ، وأن الوصايا الدينية في نظره هي أرذل الوصايا وأشدّها ضرراً . ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإقامة حكومات في كل أنحاء أوروبا بعد الثورة الفرنسية بثورات مشابهة ، وهكذا تداخل اليهود في المجتمع المسيحي بعد ان انقطعوا عنه .

ولقد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوروبا ، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية (١٧ / ٩ / ١٧٧١) اعتبار اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته . وربما كان الحرص على كشف هذه الخلفية ، وعدم الانسياق وراء ذلك المفهوم التقليدي الذي كان للصهيونية يد

(١) دكتور الفاروقي - راجع الملل المعاصرة في الدين اليهودي .

في رسمه، والذي عمته كل كتب التاريخ من قصور الدين في اوروبيا عن مجارة العلم - ربما أردت الاستدلال على أن الصهيونية العالمية كانت وراء هذا المخطط كله من أجل تدعيم وإقرار مبدأ « العلمانية » . وقد استطاعت فعلاً ذلك ، وحققت نتائج هامة ، كان أخطرها ، أنها استطاعت أن تنقل نفس الحركة الى عالم الاسلام مع الاختلاف الكبير ، والتباين الكبير . وأنها أرادت بذلك أن تحقق في عالم الاسلام نفس الهدف ، وهو إزالة عناصر التميز والذاتية ، وخصائص النفس والعقل والمزاج النفسي المستمد من الاسلام ، وقتل هذه الذاتية وتمييعها واحتواؤها . حتى يتحقق لها نفس السيطرة على الفكر الاسلامي على النحو الذي حققت به احتواء الفكر الغربي المسيحي ، وتذويبه في الايديولوجية التلمودية من أجل إقامة امبراطورية الربا العالمية .

وأعتقد أن الفكر الاسلامي سيظل صلباً صامداً، وأنه سيكون الصخرة التي توهي ناطحها : ليس لأن المسلمين ميتقظون لما يحاط بهم فحسب . بل لأنه من عند الله ، وأنه منطلق الفكر الإنساني الرباني المصدر «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .

(٤)

فيمراجعة واسعة للجذور التاريخية للعلمانية في اوروبيا تبدو عدة حقائق :
(الحقيقة الأولى) أن اوروبيا فصلت بين السلطة الزمنية ، والسلطة الروحية منذ وقت بعيد ، وقبل الثورة الفرنسية نفسها .

فلما قامت الثورة الفرنسية ، والمعروف أنها من عمل الماسونية التلمودية ، ووضع إعلان حقوق الانسان : أعلنت المساواة والحرية بين كل الناس بصرف النظر عن أديانهم . وتقرر مصادرة أملاك الإكليروس ، وإغلاق المعاهد

والجامعات الدينية، وإنشاء مدارس وكليات وجامعات علمانية أي لا دينية.

وفي عام ١٩٠٥ أقرت فرنسا قانوناً حاسماً في هذا المجال: يفصل علاقات الدين بالدولة . ويقوم على أساس التفريق بينهما ، وإعلان حياد الدولة تجاه الأديان او علمانيتها .

وقد أشارت المصادر التاريخية الى أن ذلك كان في مواجهة النظرية التيوقراطية المسيحية القائلة بأولوية السلطة الدينية على السلطة المدنية ، وخضوع الأخيرة للأولى واستمداها منها . هذه السلطة التي كانت تثبت الملوك على عروشهم . ويعقد المجتمع المدني بالتعاليم والمعتقدات الدينية . وقد وصل ذلك الى غايته بتولي رجال الدين بأنفسهم سلطات الحكم .

(الحقيقة الثانية) : أنه ساد فرنسا في ذلك الوقت بعد الثورة الفرنسية المذهب اللاديني وغايته محاربة رجال الدين وإقصاؤهم عن الحياة العامة ، والحد من تأثيرهم بإقفال الرهبانيات والمعاهد الدينية ، ومنع التعليم الديني في المدارس ، ومصادرة أملاك الكنيسة ، وسيطرة غير المؤمنين على المدارس والحكم^(١) .

ومن هذ الحقائق تبين لنا أن العلمانية ليست قاصرة على فصل الدين عن الدولة . بل انها تخطط كامل يستهدف إقصاء الدين عن كل ميادين الفكر والحياة ، ويتخذ منطلقاً لذلك من خلال الأنظمة السياسية الأساسية في مجال القوانين والتعليم والاقتصاد .

ويقتضي ذلك أن تخلو دساتير هذه الأمة من أي انتماء ديني ، او اتخاذ شريعة الدين مصدراً لقوانينها .

(١) جوزيف مغيزل : راجع بحثه في مجلة العلوم . م ١٩٥٩ .

فإن غاية من وراء العلمانية ضخمة ومسيطرة على مختلف آفاق الفكر والحياة، ولكنها حينما تعرض يتحاشى الكشف عن خطرها ، او مدلولها العميق ، فيكتفى بأن يقال : العلمانية هي حياد الدولة تجاه الدين ، وانها ليست عقيدة إيجابية او فلسفة تعتمد على الدولة، وتبشر بها، بل هي موقف سلبي^(١). ولا ريب أن هذه العبارات المقنعة خطيرة المدلول . وإن حاولت أن تنفي أن العلمانية مذهب او فلسفة . ولا ريب أن العلمانية تيار خطير مسيطر أقوى من كل مذهب وفلسفة . ويمكن القول بأنه هو القيد الذي فرضته الايديولوجية التلمودية على الفكر الغربي الليبرالي ومنه انطلقت الى مختلف المخططات المطروحة. والتي يقوم عليها المذهب المادي في مجال الفكر والإجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية ، فهي القاسم المشترك على كل هذه المذاهب والدعوات . وهي في عبارة موجزة : شطب الدين وإلغاؤه كلياً من مختلف طوابع الحياة والمجتمع والفكر .

(١) مناقشات المجلس الفرنسي لدستور ٢٧ تشرين اول ١٩٤٦ .

العلمانية في الفكر والمجتمع الاسلامي

منذ أن فرض الاستعمار سلطاته على المجتمع الاسلامي . وجرت محاولات الواسعة في إقصاء المنهج الاسلامي في الشريعة والاقتصاد والتعليم ، وإحلال منهج علماني بديلاً منه ، بدا ذلك واضحاً في محاولات لفرض القانون الوضعي بديلاً للشريعة الاسلامية ، وإنشاء معاهد الإرساليات التبشيرية والسيطرة على مناهج المدارس الوطنية وإخلائها من دراسات القرآن والاسلام والعروبة ، وإقامة هذه المناهج بلغة المحتل . وأمامنا تجربة كاملة لذلك في المنهج الذي رسمه كرومر في هذا المجال كله ، ونفذه دنلوب في أمر التربية والتعليم .

وكانت الدعوة في أول أمرها تنطلق من خلال النظام السياسي ، ويركز رجالها على النظم الليبرالية الديمقراطية كأساس للمنهج السياسي الذي تطبقه البلاد العربية بعد أن تنال استقلالها . وهو المنهج الذي يقوم على أساس إنشاء برلمان ودستور وأحزاب .

وقد حرصت هذه الدعوات على أن تحطم كثيراً من العقبات التي تقف أمام العلمانية إذ ركزت على الاقليمية. والفصل بين الوطنية وبين مفهوم الأمة العربية من ناحية ، وبينها وبين وحدة العالم الاسلامي من ناحية أخرى ، كما عملت على الفصل بين هذه الأقطار ثقافياً ، وبين الفكر العربي الاسلامي .

وطرحت في هذه المرحلة عشرات من المناهج الغربية في مفاهيم الحرية والديمقراطية ، وإعلاء شأن التاريخ القديم السابق للإسلام ، وإجراء الحفريات التي تؤكد الرابطة القديمة ، كالفرعونية والفينيقية ، والبابلية والآشورية . وحاولت أن تشكل من هذا كله منهجاً فكرياً يعزل العرب والمسلمين عن جوهر فكرهم الأصيل ، فلم يبق من هذا الفكر إلا كلمة (الدين) وهي هنا تعني ذلك الجانب اللاهوتي العبادي القاصر على الصلاة والصيام والأعياد والمساجد . وفي ضوء هذا المنهج تشكلت مناهج التعليم الجديدة خالية تماماً من كل ما يفيد بأن الاسلام دين قائم على منهج حياة كامل ، أو أنه رابطة أخوة مع المسلمين ، فضلاً عن الدعوة الحارة الى أقلمة كل مناهج الحياة .

فهناك الدعوة الى تمصير اللغة وتمصير الأدب وتمصير القانون وتمصير التربية وتمصير التاريخ ، وكلها محاولات للقضاء على مفهوم الرابطة العربية القائمة على أسس وطيدة عميقة الجذور من اللغة والتاريخ ، كما جرت الدعوة الى الاقليمية التاريخية ، جرت الدعوة الى العامية في اللغة ، وإلى اقتباس الأساليب الغربية في التعليم . وإعلاء اللغات الأجنبية والتاريخ الأوروبي ، ودراسة أبطال الغرب ، كما جرت الدعوة الى تحرير المرأة .

أما السياسة فقد جرت من خلال الجيل الذي شكله الاستعمار من تلامذته وأوليائه ، أما الصحافة فقد تولاهم خريجو معاهد الإرساليات الذين قدموا من الشام .

ولا ريب أن هذه التجربة قد كانت شبيهة بكل التجارب مثيلاتها في

العالم الاسلامي كله . فقد كانت النخبة التي برزت في مجال السياسة والفكر والتعليم والصحافة كلها من ذلك الرعيل الذي تشكل حول مناهج التغريب . وفي معاهد التبشير . وقد قام فكره على هذا الطابع من الفصل الكامل بين الدين والمجتمع .

(١)

في مجال القانون ، سيطر القانون الفرنسي في أواخر عهد اسماعيل بنفوذ الدول الأجنبية ، ثم وضع تقنين آخر أشد إيفالاً في تركيز النفوذ الأجنبي عام ١٨٨٣ هو القانون المدني . ثم زادت السيطرة التي استهدفت التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية . وكانت الدراسات في مدرسة الحقوق تقدم على أساس القانون الوضعي مع بعض شرائح من دراسات الشريعة الإسلامية .

وكان القانون الوضعي مخالفاً للشريعة الإسلامية في جوانب أساسية كبرى هامة :

أولاً : مخالفة الشريعة الإسلامية في أمور الأسرة ، وعلاقات الزوجين ، وخاصة في حالة الانحراف ، وإلغاء جريمة الزنا والسرقة ، وهتك العرض .

ثانياً : مخالفة الشريعة الإسلامية في أمور المعاملات ، وإباحة التعامل بالربا . وقد خالفت القوانين الوضعية في ذلك أبسط الأسس التي ترعاها القوانين ، وهي أن تستمد مادتها من تقاليد الشعوب وأعرافها الخلقية ومقاييسها الدينية للفضيلة والرزيلة ، ومن ثم لم تكن هذه القوانين تعبيراً صادقاً عن تقاليد العرب والمسلمين ، وعرفهم الخلقية ، وكانت معارضة بذلك لشريعتهم الأساسية التي عرفوها وعملوا بها منذ أربعة عشر قرناً . غير أن المسلمين لم يقبلوا بهذا التغيير الذي فرض عليهم قرضاً تحت نفوذ استعماري مسيطر ،

امتدّ بعد ذلك في إطار نظام سياسي تابع . وسرعان ما انكشفت حقائق، وانبلجت أضواء، وكان المسلمون في خلال ذلك كله لا يقرون ولا يستسلمون لهذا التحول الذي كان يعد في نظر النفوذ الأجنبي أولى خطوات العلمانية . وهو فصل الدين عن الدولة ، وإقامة نظام لا ديني خالص في مجال المعاملات للقضاء على منهج الشريعة الإسلامية ، هو مقدمة لإقرار العلمانية في مرحلتها الأولى ، كمقدمة لتحقيق هدفها الأخير في عزل النظام الإسلامي ككلية عن المجتمع والفكر .

وكانت أولى بوارج المقاومة فشل هذه القوانين في تحقيق الأمن والطمأنينة للمجتمع نفسه ، فقد أدت الى مضاعفات خطيرة، وتبين للساسة من بعد عجز هذه الأنظمة وقصورها في مجالات مختلفة فجرت محاولات عديدة للتعديل والإضافة .

ثم جاءت بعد ذلك دراسات المسلمين للشريعة الإسلامية ، وأهميتها . ثم في جامعات أوروبا فكشفت عن جوهر هذه الشريعة وعظمتها، حتى تراجعت أمامها بعض التشريعات القانونية ، واعترف أصحابها في الغرب بأن الإسلام سبق إليها .

من ذلك أبحاث عمر لطفي - ومن ذلك رسالة الدكتور نجيب الأرمنازي عن الشرع الدولي في الإسلام .

ثم جاءت المرحلة التالية بعد ذلك في الاعتراف الكامل بالشريعة الإسلامية في عدد من المؤتمرات الدولية ١٩٣٣ - ١٩٣٧ - وما بعدها حيث انكشفت حقائق كثيرة إزاء ما كان يطرحه الاستعمار والتغريب من شبهات . وأهمها استقلالة الشريعة الإسلامية عن القانون الروماني .

ثم جاء قرار مؤتمر القانون الدولي في لاهاي ١٩٣٧ بأن الشريعة الإسلامية.

(١) : مصدر من مصادر التشريع العام . (٢) أنها صالحة للتطور . (٣) أنها تشريع قائم بذاته ليس مأخوذاً من غيره .

فإذا أضفنا الى هذا أن الشريعة الاسلامية وردت في كثير من دساتير البلاد العربية بوصفها مصدراً أساسياً للقانون . عرفنا الى أي مدى سقطت هذه المحاولة الخطيرة التي أرادت أن تجعل من إحلال القانون الوضعي محل الشريعة الاسلامية عاملاً ، او ركيزة لإقرار فكرة (العلمانية) في الفكر الاسلامي والمجتمع العربي .

ولقد كشف كثير من الباحثين عن عظمة هذه الشريعة . وجرى اتخاذها أساساً للقوانين المدنية في كثير من البلاد العربية . وجرت مناقشات متعددة حول هذه القوانين الوضعية القائمة . وكيف أنها وضعت في ظروف لم تكن فيها الإرادة الحرة قادرة على تشكيلها بحرية . ولم تكن اليد مطلقة في وضعها .

وكان الاستعمار يرمي من وراء هذه القوانين الى هدم شخصية هذه الأمة ، وإخراجها عن أطرها وقيمها . واستغلال البلاد لفائدة الأغيار وإسباغ الحماية القانونية على الحانات وبيوت الدعارة على نحو مغاير تماماً لكل القيم .

وهذه القوانين هي إحدى المعطيات التي يمنّ بها على المسلمين والعرب دعاة العلمانية . ويرونها مقدمة لخطوة تالية : هي تغيير جلد هذه الأمة ، والإلقاء بها في أتون الأمية ، وتحطيم ذاتيتها ومعنويتها . وقد فشلت كل هذه المحاولات وبدأ الآن الاتجاه الواضح في مختلف دساتير البلاد العربية ، الى أن تكون الشريعة الاسلامية مصدراً أساسياً للتشريع .

كذلك واجهت مختلف الأنظمة الديمقراطية الليبرالية اضطراباً كبيراً . وكشفت في كثير من البلاد عن فساد كبير ، ومعارضة تامة لطابع العرب وتراثهم النفسي وروحهم التي تستمد مفهوماً من الشورى والعدل الاجتماعي

على النحو الذي عرف به الاسلام ، وكشف عنه القرآن فيما هو أقرب الى
الفطرة .

(٢)

وفي مجال التربية والتعليم ركز النفوذ الاستعماري قواه الضخمة مستهدفاً
تحقيق مفهوم العلمانية بتشكيل نماذج من النخبة والمتقنين يتجاوز الدين أساساً.
ولا تقف عند اللغة العربية او تاريخ الاسلام ، او قيم القرآن ومنهجه الشامل.

وقد كانت مهمة التغريب مركزة أساساً على إنشاء مدارس الإرساليات
والمدارس الأجنبية ومسابقة المدرسة الوطنية الاسلامية والقضاء عليها، وإنشاء
منهج تعليمي تغريبي خالص . وقد اتسع نطاق المدرسة الأجنبية والتبشيرية ،
ونقلت مناهجها إدارات التعليم الخاضعة في معظم أجزاء العالم الاسلامي للنفوذ
الأجنبي . وبذلك حققت المحاولة الأولى للعلمانية خطوة ضخمة في السيطرة
على العقول وتربية النشء وتحويل النفس العربية الاسلامية عن مزاجها
الأصيل ودفعها الى إعلاء مفهوم الغرب واتجاهه واستنقاص التراث والقيم
العربية الاسلامية . وقد كان إلغاء تدريس الاسلام أساسياً، وتدريس فلسفات
الاديان البائدة منهجاً . واستتبع ذلك نفوذ ثقافي واسع عمد الى تسوية التاريخ
وإثارة الشبهات حول الاسلام والقضاء على اللغة العربية . وامتد هذا النفوذ
عن طريق الاستشراق الى الصحف ، وعن طريق التبشير الى المدرسة .

وأشارت مؤتمرات التبشير وتقارير المبشرين الى هدف واضح من وراء السيطرة
على التعليم والتربية ، وهو استقطاب النشء الصغير من المسلمين ، وإخراجهم
من قوالب الاسلام ، وأن تعليم اللغة الانجليزية قد زعزع اعتقادات كثير من
المسلمين ، وأنها الوسيلة الأساسية لبث الأفكار الإلحادية والمادية كما ركزت

على إخراج الشاب والفتاة من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة والوطنية والدفاع عن الحق .

وأشارت تقاريرهم الى أنهم استطاعوا إخراج القرآن والدين من مناهج التعليم ليفسحوا المجال النفسي والفراغ العقلي للشباب أمام مذاهب الإلحاد والتغريب والغزو الثقافي ، وتركزت الحرب على اللغة العربية والقرآن . وهو جما هجوماً شديداً وانتشرت المطاعن حولها .

ولكن هذه الخطة قد ووجهت من حركة اليقظة العربية الاسلامية بشدة وتصاعدت الصيحات في كل مكان لإنشاء المدرسة الاسلامية . واعترض الكتاب المسلمون على قصر التعليم على اللغة الانجليزية . وواجهت حملات التبشير مقاومة ضخمة ويقظة كبرى امتدت الى معظم الصحف واستقطبت كثيراً من الكتاب حتى الذين كانوا من قبل في نطاق حركة التغريب .

وحرص كثير من العلماء والباحثين على الإلحاح في دعوة الى إدخال الدين في مناهج التعليم ، وأنشئت مدارس كثيرة لتعليم أبناء الفقراء حتى لا تقتنصهم مدارس الإرساليات ، وجرت الدعوة الى تعليم العلوم والطب والقانون باللغة العربية . ولم يتوقف مفكرو الاسلام عن الدعوة الى تصحيح مناهج التربية والتعليم وتحريرها من النفوذ الأجنبي ، ومحاولات تدمير القيم الاسلامية في العقل والنفس العربيين . وامتدت المقاومة الى الثقافة عن طريق الصحافة فهاجمت حركة التبشير والاستشراق ، وما طرحناه من شبهات زائفة حول الاسلام ورسوله ، والقرآن والتاريخ الاسلامي واللغة العربية^(١).

(١) راجع هذا بتوسع : كتاب الاسلام والثقافة العربية ، ويقظة الفكر العربي في مواجهة التغريب .

وفي مجال الاقتصاد ركز النفوذ الاستعماري على المصرف ونظام الربا . فقد سيطر الاستعمار على الحياة الاقتصادية بواسطة أعوانه من الأجانب ، وخفض أسعار المحاصيل الرئيسية للبلاد ، وباعها بأبخس الأثمان ، وعمد الى تأسيس البنوك الأجنبية وشركات الرهون . واستطاع أن يسقط نصف ثروة البلاد في أيدي الأجانب في عشر سنوات . وقد بلغت أرباح هذه الشركات أكثر من ميزانيات الدول نفسها ، وأدخلوا الى البلاد المحتلة ألوفاً من المستوطنين استطاعوا بسلطان الاستعمار الاستيلاء على آلاف الأفدنة الجيدة ، والقضاء على الصناعات الوطنية والسيطرة على مالية الدولة ووضعها تحت وصاية النفوذ الأجنبي بفضل سلطات الامتيازات الأجنبية ونفوذ المحاكم المحتلة ، كما فرض الاستعمار على البلاد الاسلامية غزواً غريباً مدمراً يتمثل في المخدرات والحانات والبغاء العلني المصريح به بأمر القانون . وخلق جواً عاصفاً من الانحلال والفساد .

وقد امتد النفوذ الاستعماري حتى سيطر الأجانب على الاقتصاد كله عن طريق الخمارات فقد أسسوا في كل قرية حانوتاً او حوانيت يبيعون فيها الخمر ، ويتاجرون بالربا ، وبذلك انتقلت الثروات إليهم . وتحول عدد كبير من الأثرياء الى فقراء ، واتجهت الأموال الطائلة الى الملاهي والملذات وأنواع الترف . وقد أحصى عدد البيوت التي خربها الإسراف خلال السنوات ١٨٩٤-١٨٩٩ فوجدت (٣١٣) بيتاً . وكانت الظروف القاسية التي فرضها الاستعمار عاملاً هاماً لسيطرة الأروام واليونانيين واليهود الذين كانوا يتعاملون بالربا قبل توسع إنشاء المصارف . وقد أحصى في مصر ١٨٩٨ خمسون بيتاً لتسليف النقود بالربا . وظهرت في سجلات المحاكم المحتلة أن الدين المسجل على الفلاحين بلغ سبعة ملايين من الجنيهات بالإضافة الى الخسارة التي لحقت بهم نتيجة مضاربات البورصة .

وهذا النموذج يتكرر ، وبصورة أكثر وأوسع وأعمق في كل بلاد العالم الاسلامي . ولا ريب ان فرض نظام الربا على معاملات الناس واقتصاديات العالم الاسلامي كان عاملاً خطيراً لا حدة لخطورته . لأنه جاء من وراء الإرادة الحرة ، ونتيجة لسيطرة النفوذ الاستعماري على مقدرات العالم الاسلامي كله ، والتصرف فيها ، وانتزاعها ونقلها الى الغرب ، حتى لقد أثرت عبارة عن أحد زعماء أندونيسيا تقول : إن ما اعتصرته هولندا من أموال أندونيسيا كفيل بأن يقيم معبراً من الذهب الخالص بين هولندا وأندونيسيا . وفي ذلك معنى ضخامة حجم الثروات المنهوبة . ولم يكن للمسلمين بالطبع من القدرة ما يمكنهم من وقف تيار النظام الربوي الاقتصادي . ولكنهم كانوا معارضين له تماماً .

وقد كتب عشرات من علماءهم أبحاثاً واسعة في تحريم التعامل بالربا في الاسلام ، وعجز الاستعماريون عن الحصول على أثارة من رأي تبرر التعامل بالربا . وانتفض المسلمون على نظام الربا في عشرات من المواقف . وفي السنوات الأخيرة تقدم كثير من الباحثين بمناهج تكشف عن إمكان تحقيق نظام اقتصادي في العالم الاسلامي ، ونظام مصرفي أيضاً على غير أساس الربا . ومن هذا الاستعراض السريع تستطيع أن تكشف بوضوح أن المحاولات الثلاث الكبرى في سبيل غرس العلمانية في العالم الاسلامي في مجالات التعليم والقانون والاقتصاد . قد وجدت معارضة كاملة . وأنها ما استمرت هذه السنوات الطويلة إلا بفضل النفوذ الأجنبي . وأنت إرادة المسلمين والعرب الحرة قد حققت في هذه الفترة السابقة انتفاضاً كاملاً ودائماً ومستمراً على تقبل هذه الأنظمة ، او الإقرار بها فضلاً عن أن الفكر الاسلامي كان دائماً بالمرصاد لمواجهة هذه الدعوة وتدمير دعائها . وهذا يعني أن المقدرات التي يتمتع بها بعض أولياء التغريب . ويرون أن المسلمين والعرب قد أحرزوها من الغرب في هذه المجالات ، هذه المقدرات قد فشلت فشلاً ذريعاً في التطبيق

وكشفت الذاتية العربية الاسلامية عن تميزها الواضح واصالتها الكفيلة برّد كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين خطها الواضح وأصولها الاصلية ولا أجد في هذا المجال أقوى من عبارة لكاتب مسيحي منصف حيث يقول :

إن مما يهيء في الاسلام لقبول مثل هذه الفكرة ويتيح قيام تعاون بين الدين والحكومة . هو أن الاسلام في جوهره أكثر من مجرد إيمان ديني ، انه نظام حياة ، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينية منها والزمنية . فكما يجد الانسان في الاسلام ما يشبع شوقه الروحي عن طريق الايمان بالله ، والتعبد له بالصوم والصلاة والزكاة والحج . كذلك يجد فيه نظاماً من القيم الاخلاقية ، والشرائع المدنية ، التي تعطيه أجوبة مفصلة لما يعترضه من مشكلات في المعاملات اليومية . ان الاسلام نظام كامل يدعو الى (بثوقراطية) تلتقي فيها الحياة الروحية بالحياة الدنيوية . وبهذا المعنى فالاسلام نظام روحي ، ونظام زمني ، كل منهما متصل بالآخر ، مكمل له ، فلا مجال للفصل بينهما .

ومن مبادئ الاسلام أن المسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين أمة واحدة ، ذات رابطة روحية تستمد جذورها من التسليم بالله ، والاعتراف بأحكام الشريعة . وما تنص عليه من واجبات على المسلم نحو المسلم ، ومن حقوق للمسلم على المسلم .

فالشريعة هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها التعاملات بين المسلمين ، وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها ، كما أن الجمع بين الحياة الروحية ، والحياة السياسية واجب ديني ، لأن وحدة الأمة روحياً منوطة بوحدتها سياسياً . ولذلك فالأمة في الاسلام لا تكتمل ما لم تتجسد في دولة قتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم . ولذلك ينبغي أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليسهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين ونشر الاسلام والمدافعة عنه ضد أعدائه . ويجمع بين السلطتين الزمنية

والروحية في خلافة تولى له على العموم بالمبايعة والخليفة ليس سوى وال يتمثل
إرادة الله بدراسة الشريعة وفهمها ، يعاونه في ذلك علماء الدين وأعيان
الأمة بالنصح والشورى . وما عدا ذلك فالخليفة مسؤول تجاه الله وضميره في
الدرجة الأولى .

ولا ريب أن في هذه العبارة خير إجابة عن مدى قدرة مفهوم العلمانية
في العالم الاسلامي على الحياة والبقاء .

الفصل الأول
العلمانية والعلم

ما هي العلاقة بين العلمانية والعلم ؟

لقد ذهب دعاة العلمانية الى القول بأن العلمانية هي ^(١) : « الدعوة الى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ، ونبتذ كل ما لا تؤيده التجربة ، والتحرر من العقائد الغيبية التي هي عندهم ضرب من الأوهام ومن العواطف بكل ضروبها وطنية كانت او دينية . بزعم أنها تضلل صاحبها ، وتحول بينه وبين الوصول الى أحكام موضوعية محايدة » .

ويبدو هذا المفهوم واضحاً في ظل الظرف والبيئة والمصر الذي ظهر فيه ، ولكنه لا يستطيع أن يقوم بنفسه منهجاً عالمياً ، او إنسانياً ، او مذهباً صالحاً للتطبيق في مختلف البيئات والثقافات . وأكثر ما يكون هذا المفهوم اضطراباً وخطأ حينما يعرض على مفاهيم الفكر العربي الاسلامي . ذلك أن الاسلام في بيئته الفكرية الواسعة ، قد حدد منهجاً للمعرفة يختلف كل

(١) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة في الفكر المعاصر .

الاختلاف . ويبدو معه مفهوم العلمانية غريباً وقاصراً وبعيداً عن الحاجة والضرورة .

ومنهج المعرفة في مفهوم الاسلام لا يقوم على الأوهام والعواطف والأهواء المضللة . ولا يعترف بالانحياز ، او الميل الى جانب معين ، ولكنه يستقيم على الحق في ضوء البرهان والدليل ، ويعتمد على الوحي والعقل ، ويجري في إطار الفطرة . (فطرة الله التي فطر الناس عليها) .

ومنهج الاسلام في المعرفة منهج متكامل ، ليس عقلياً خالصاً ، وليس روحياً خالصاً ، ولكنه منهج جامع فريد متكامل ، يعطي للعقل طريقه ومنطلقه في الآفاق التي يستطيع الجري فيها والتحرك داخلها ، وخاصة في مجال العلم والتجربة والانطلاق في آفاق الارض بالبحث والكشف . ثم يغطي المناطق الأخرى التي لا تستطيع التجربة ، او العقل او الحس اقتحامها والوصول اليها . وخاصة فيما يتعلق بالكون والحياة والوجود والنفس الإنسانية . فيطبق فيها منهج الوحي الذي قدمته الأديان الى البشرية . واستكمل نموذج الأوفي في القرآن ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً .

والاسلام في هذا لا يقر الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس وحده ، لأنه بذلك يكون قد تجاهل عالماً واسعاً كبيراً من الحقائق ، لا تصل إليه الحواس ، ولا يدركه العقل ، ولا تصل إليه التجربة ، ذلك هو عالم الغيب .

ومن هنا فإن نظرة العلمانية الى العلم على هذا النحو ، هي نظرة قاصرة ، لأنها تقف عند المحسوس وحده ، وهو جانب قليل من العلم الذي أتيح للبشرية أن تفهمه وتعقله وتؤمن به .

وان اقتصار النظرة على هذا الجزء الصغير من العالم ، يجعل الانسان عاجزاً

عن تحقيق ذاته ، او فهم موقعه ، او التحرك في حرية لمعرفة الغاية من وجوده ،
او أداء دوره الطبيعي في هذا العالم ، وهو دور بناء وعمل يتسم بالمسؤولية
الفردية والالتزام الاخلاقي ، ويستكمل بالبعث والجزاء في الدار الآخرة .

ولا ريب أن النظرة العلمانية حين تقف في حدود المنهج التجريبي ، إنما
تكون غير قادرة تماماً على استيعاب المعرفة الحقيقية ، او إعطاء البشرية
المنهج القادر على النظرة الشاملة الكاملة في مختلف أبعاد مهمة الانسان ودوره
الحقيقي ، وارتباطاته بالعوالم والحياة والموت والبعث والجزاء .

ولذلك فإن النظرة العلمانية هي في حقيقتها نظرة جزئية قاصرة ، لأنها
توقفت عند التجربة او المحسوس وحده ، وليس هذا كل شيء في الحياة . وقد
يقال إن هذا المذهب جاء نتيجة سيادة الدراسات التجريبية الغربية التي
اتصلت بالعلوم الطبيعية . ولكن المفروض أن المنهج العلمي التجريبي له مجاله
وميدانه ، وأنه قد اختص بجانب واحد من العلم ، ولكنه ليس صالحاً ، لأن
يكون منهجاً كاملاً للمعرفة ، لأن المعرفة لا تكون عقلية محضة ولا تجريبية
فحسب ، ولا قائمة على المحسوسات وحدها .

والواقع أن الاعتماد على منهج واحد هو المنهج التجريبي الذي سارت عليه
العلمانية ناقص غير كامل . فهي إنما تتجاهل قطاعاً كبيراً أساسياً من المعرفة
الانسانية .

(٢)

الحق أن اشتقاق العلمانية من العلم خطأ محض ، بل هو تمويه خطير ، وزيف كبير ، ذلك ان العلم في حقيقته لا يقر منهجاً ناقصاً ، ولا يرى أن العلم التجريبي القائم على المحسوس والتجربة هو وحده العلم . ولا يرى أن عالم الغيب نفسه مما يستبعد تماماً ، او ينظر اليه على أنه غير قائم وغاية ما يقول العلم التجريبي في عالم الغيب (المتافيزيقيا) أنها مما لا تستطيع وسائله وأدواته أن تقول فيها الكلمة الفاصلة ، وكلمة علم في معناها الحقيقي هي جماع العلم كله ، علم الحياة وما بعد الحياة فيما يتصل بالله والكون والانسان والبعث والجزاء ، ثم تغير مفهوم العلم في العصر الحديث ، فأصبح قاصراً على نوع معين من المعارف فيما يتصل بعلوم الطبيعة والرياضيات ، وكل ما يقع تحت الحس والتجربة والملاحظة والاختبار .

وبذلك قصر مفهوم العلم عن حقيقته ، واختصر مجاله ، فتحدد في حدود ضيقة . ومن هنا فقد أصبح هناك مفهوم آخر أوسع نطاقاً . هو مفهوم المعرفة ، والمعرفة أعم من العلم التجريبي ، ويدخل فيها كل ما ليس علماً تجريبياً خالصاً مما يتصل بعالم ما فوق الطبيعة من ناحية ، وبالعالم الانسان ، وما يتصل به من اخلاق ونفس ومجتمع .

ومن هنا فإن العلم التجريبي وحده الذي أصبح يطلق عليه اسم العلم .

لم يعد في الإمكان أن يقتصر على مجال ضيق يتصل بالتجربة والحس والملاحظة . ذلك أن المعرفة أوسع مجالاً ، ولها أدوات ووسائل أخرى : منها الوحي ، والقلب ، والبصيرة ، والوجدان ، والإرادة ، والحس ، وكل ما ليس مادياً ، ولا يدخل في دائرة التعامل والتجريب .

ولما كانت وسائل المعرفة فيما عدا العلم التجريبي قاصرة ، لأنها تتصل بقيم وعناصر ، لها طابع مختلف . فقد كان لا بدّ لها من منهج آخر يرسم قواعد التعامل معها . ولا بدّ أن يكون هذا المنهج غير منهج العلم التجريبي . وقد هدى الإنسان منذ نشأته الأولى الى هذا المنهج عن طريق الفطرة التي فطر عليها . وفي ضوء رسالات السماء ، وعن طريق الانبياء الهداة الذين جاءوا بالحق من عند ربهم .

ولما كان مجال المعرفة الإنسانية أكبر من مجال العلم التجريبي . فقد سبقت الأديان الى إضاءة الطريق فيه . ورسم منهج واضح له ، لأنه يتصل بعالم الغيب الذي لم يستطع العقل أو العلم في خطواته بعد اكتناه سره والوصول الى حقيقته . ولأنه متصل بالتعامل بين الجماعات ، ومرتبطة بالسمي في الحياة . فقد أضاءت رسالات السماء الطريق اليه ، وحق لا يشغل الإنسان نفسه بالبحث عنه ، وليكون مهيباً لأداء رسالته الحقّة في مجال اكتناه أسرار الحياة ، والكشف عن كنوز الأرض وثمراتها .

ومن هنا فإن العلم على النحو الذي حددته المفاهيم المستحدثة ، لا يمثل إلا جانباً صغيراً من العلم الأوسع الذي أطلقنا عليه «منهج المعرفة» تمييزاً له .

ومن هنا كان العلم طاقة من طاقات الإنسان بينما كانت المعرفة التي جاءت بها الأديان منهجاً كاملاً للحياة البشرية ، يسعى الى تنظيم علاقات الإنسان بكل ما يتصل به بالنفس والأسرة والمجتمع والأمم والشعوب والأشياء

والعالم والدنيا والآخرة . وكان ما يتصل فيها بالطبيعة هو ما أطلق عليه العلم . « فالعلم علاقة واحدة من مجموع علاقات جاء الاسلام لينظمها ضمن نظام قوامه تصور كامل لوضع الانسان في الكون ، فكيف يمكن أن تنسحب علاقة جزئية من منهج متكامل فتصبح هي المنهج الذي تخضع له العناصر كلها . ويتخذ أسلوبه في العمل أسلوباً لها كلها . بينما هذا المنهج يتصل بالمحسوس والتجريب ، وبينما تتعدد الجوانب التي لا يمكن أن تخضع للتجريب .

هذا المفهوم الخطير الذي جرى عليه الفكر الغربي للعلم ، وحاول أن يشتق منه مذهب « العلمانية » إنما كان يطمع أساساً في تحقيق غاية واحدة . هي : القضاء على منهج المعرفة الذي جاء به الدين الحق ، ليحطم هذه الجوانب كلها . ويقيم الحياة على أسلوب هذا الجزء القليل المتمثل في جانب علاقة الانسان بالطبيعة وحدها . وكيف يمكن أن يسيطر الجزء على الكل ، ويلغي العلم الدين ، وهو جناح منه . هذا هو التمويه الخطير الذي حملته الايديولوجية التلمودية لتطرحه على البشرية لتسحق صلتها بالدين والوحي . وبرسالة الساء ، وبالمنهج المتكامل الذي قدمه الاسلام . ولكن هل استطاع العلم حقاً أن يقطع الناس بأنه في ميدانه المحدود قد وصل الى الحقيقة حتى يستطيع أن يستشرف منهج المعرفة كله ، ويسيطر عليه ، الحق أن العلم ما زال رغم انتصاراته المتعددة قاصراً عند غاية واحدة هي معرفة ظواهر الاشياء ، فضلاً عن « أن العلم لم يستطع حتى الآن أن يضع منهجاً للتعامل مع الطبيعة نفسها . وأنه لم يستطع السيطرة على معطياتها ، وإلزامها بإسعاد الناس فحسب » . ومن ثم فليس للعلم أن يكون منهجاً او ديناً للانسان . لأن الجزء لا يستشرف الكل ، ولا يمكن لعلاقة واحدة أن تحدد شكل ومصير كل علاقات الانسان .

هذا فضلاً عن أن العلم ليس هو كل مناهج المعرفة ، ولكنه واحد منها ، فهناك مناهج عقلية ومناهج روحية ، ومناهج تقوم على التجربة الباطنة ، ومناهج تقوم على الحدس .

ويستطيع العلم أن يضع منهجاً في التعامل مع الطبيعة والأشياء ، ولكن ليس في استطاعته أن يجعل منهجه شاملاً للتعامل مع الناس والغيب .

إن العلم لم يستطع حتى الآن أن يكشف حقائق الأشياء برغم تقدمه الهائل . فقد أقرّ بأنه يقتصر على معرفة ظواهر الأشياء . وليست عنده القدرة على تفسير كنهها . وما يزال يحلّ عالم الغيب وما وراء الظواهر . وهذا الذي ما زال يحله العلم . يعرفه الانسان عن طريق آخر ، عن طريق منهج المعرفة الذي جاء به الوحي والدين .

لقد وقف العلم عند الغيب والمجهول ، فلما لم يستطع فهمه جاءت الفلسفة فأعلنت عدم وجوده كما أنه لما عجز عن فهم الخلود، جاءت الفلسفة فأنكرته، فالعلم في حدود أدواته ومنهجه ، ليس قادراً إلا في إطار محدود ، ولكن الفلسفة تخطئ حين تنكر ما لا يستطيع العلم الوصول اليه . وحين ترى أن الحياة هي نهاية كل شيء .

لقد عجز العلم عن أن يعطي بديلاً عن الدين ومهمته الكشف عن الغيب والخلود ، وعجز منهجه المحدود أن يكون منهجاً كاملاً للمعرفة الانسانية كلها . وتبين للعلماء والناس جميعاً تلك الحقيقة الواضحة ، وهي أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة ، ولكنه ليس سلاحها الوحيد كما تبين خطأ القول بأنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة ، وأن ما عداه ليس شيئاً .

(٣)

ما هو العلم :

العلم في تعريف أساطين العلم هو مجموعة فروض ، تحولت بالتجربة الى قوانين قابلة للتغيير الدائم فليس في العلم شيء ثابت ، وهو في مجموعه محاولة لتعليل الظواهر بعلم مادية غير إرادة الله .

يقول برتراند رسل : إن العلم يقرر أحكاماً على سبيل التقريب ، لا على سبيل اليقين .

وقد أجمع العلماء على أن مهمة العلم ما تزال قاصرة على وصف ظواهر الاشياء ، وتقريرها لا تعليلها . وقد كان مفهوم العلم في أذهان العلماء أنه أمر ، يراد به تفسير الوجود . وكان العلماء في أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات ، وعقم نتائجها . ومن هنا ترك العلم للفلسفة مهمة بحث العلل النهائية للوجود ، بعد أن عجز في هذا المضمار ، ولم يسفر بحشه عن شيء .

والعلم بإقرار جميع الباحثين: لا يقر شيئاً ، وإنما يربط وينسق ويلاحظ

ملاحظة منهجية . وبالتالي يصف ويقرر ، وليس هذا فهماً للأشياء ، ولكنه تعرف عليها ، ويقرر العلماء بأن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها ، والعلم يعترف بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا عن طريق الحواس ، ولذلك فكل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئاً . ويقرر العلم بأن حقائقه ليست مطلقة ولا أبدية ، بل هي حقائق نسبية . وأن البحث العلمي في صراع لا ينتهي ، ما يقرره اليوم ، ينقض ما قرره بالأمس ، وما يزال العلماء يتساءلون هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة . ويقولون لقد قطع العقل أشواطاً بعيدة ، خلال ثلاثمائة سنة ، فهل استطاع التوصل الى الحقيقة ؟ فالعلم رغم تقدمه ما يزال عاجزاً عن حل المشاكل الكبرى ، وما يزال خاضعاً للقوى السياسية التي تحول منجزاته الى أفضع وسائل الفتك والتدمير .

يقول مارتين ستانلي كونجرون : إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهي بالاحتمالات وليس باليقين . ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، عرضة للأخطاء في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل والحذف ، وليست نهائية . وقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث في كنه الأشياء بعد أن تبين أنه لا سبيل الى معرفة الكنه المغيّب عن الحواس ، واكتفى بدراسة ظواهرها .

ويقول رسل تشالر أرنست : ان كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية . قد باءت بالفشل وخذلان ذريعتين ، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي الى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدها في الخلايا الحية .

وبعد فهذا هو ما استطاع العلماء أن يصلوا إليه بعد جهد طويل . وقد خيب ظنهم ما حاول أن يزدهي به رينان وغيره حين كانوا يقولون : إن العلم وحده سينقذ الإنسانية . وإن العصر الذي يسود فيه العقل . يصل الإنسان فيه إلى الكمال ، تلك كانت دعواهم التي كذبتها التجربة نفسها ، وأصارتها إلى وهم . ولكن لماذا كان العلم مادياً خالصاً ؟

النظرية المادية

لماذا اعتنق العلم النظرية المادية :

لقد بدأ العلم الحديث من خلال (التجريب) الاسلامي، فقد احتقر اليونان التجربة والتجريب، واقتصروا على التأمل. ثم أصبح التجريب رمزاً على روح الحضارة الاسلامية، مستمداً من القرآن، جامعاً لقوانين الفطرة في الانسان، وقوانين العلم في الطبيعة. ولكن النهضة الأوروبية فصلت بينهما، وقبلت أحدهما، وأنكرت ما سوى المادة، وما وراء الطبيعة. وقام مفهوم خطير على هذا الأساس، اتصل بالأخلاق والنفس والمادة الجدلية والمادة التاريخية وهكذا.

لقد فصل المفهوم الاسلامي بين العلوم الطبيعية، والعلوم الانسانية، وجعل لكل منها منهجاً خاصاً يتفق مع طبيعته وماهيته.

وأبرز مفاهيم الاسلام أن منهج العلوم الطبيعية مستمر التطور، بينما منهج العلوم الانسانية قائم على ثبات المعرفة، لأنه يتصل بالفطرة والانسان، ولا يخضع لمقدرات التجريب وأنابيب الاختبار، غير أن المفهوم المادي الذي عجز عن الفصل بين الطبيعيات والانسانيات. ولم يقدر عمق الفوارق بينهما

حاول محاكمتها معاً الى منهج واحد ، او حاول محاكمة الانسانيات الى منهج الطبيعيات . ومن هنا كانت نقطة الاختلاف ، ونقطة الخطر التي جرى فيها الفكر الغربي شوطاً طويلاً .

لقد اكتشف الانسان عن طريق العقل (الذي لا يعرف العلم ماهيته) قوانين الطبيعة . ولكن الانسان كان أعجز عن طريق هذا العقل ، أن يكشف قوانين الانسان وروابطه بالله والوجود والحياة والموت ، فكان انحرافه بالفهم الى إقرار المادية أساساً واحداً للعلم والحياة عاملاً خطيراً في عجزه عن فهم قوانين الانسان والكون والاجتماع التي لم يكن العقل وحده قادراً على كشفها .

ومن هنا كان خطأ المادية في أنها تدرس الانسان وتحلله كما تدرس الاشياء . وكان خطأ الماديين حين يقولون : « نحن ندرس الانسان ونحلله كما ندرس أي شيء آخر . نقول إن الانسان كائن مادي كياوي . ومن حيث إنه جزء من النظام المادي للطبيعة ، فهو يجب أن يخضع للقوانين الطبيعية والكياوية مثل الكائنات الحية الأخرى ، . كان هذا خطأ ، وكان هذا نقصاً في منهج العلم والمعرفة ، حيث يجري محاكمة الانسان المكون من روح وجسد الى ما تحاكم اليه الحشرات ، او الظواهر المادية الصرفة . ومن هنا كان عجز النظرية المادية عن فهم الانسان الذي يجب أن يعمل على نحو مختلف عن موضوعات العلم الطبيعي .

ومن هنا كانت الحاجة الى منهج آخر لدراسة الانسانيات وعلوم الاجتماع ، وعلاقة الانسان بالكون والحياة والموت ، هذا المنهج ليس في استطاعة الانسان نفسه أن يذشئه ، وهو أعجز من أن يستوعبه بأدواته القاصرة التي لها وظائفها وحدودها . ولذلك فقد سبقت الأديان فقدمت هذا المنهج للإنسان

لتغنيه عن أن يجهد في سبيل معرفة لا يستطيع بغير عون من الوحي والفطرة أن يصل اليها ، فكفته مؤونة ذلك ، وفتحت له الطريق الى العمل الميسر له ، والمكلف به ، والمنتدب له ، بوصفه مستخلفاً في الأرض ، وهو العلم التجريبي وما يتصل بالبحث في الأرض ، واستثبات نتائجها وكشف كنوزها . ومن هنا كانت هناك حقيقة أساسية هي : أن العلم يقدم فروضاً لتفسير الطبيعة ، وهي فروض متغيرة متطورة ، بينما يقدم الدين حقائق لتفسير الحياة العامة .

(٢)

ذهب غلاة الماديين الى القول بأن المادة هي كل شيء ، وأن الأنواع توالدت من بعضها عن طريق الصدفة ، وأنه لا يوجد شيء حقيقي إلا المادة والقوة ، وأن القوة من قوى المادة .

وأنكرت المادية ما وراء الطبيعة إنكاراً كاملاً ، كما أنكرت وجود الروح ، وكل ما لا يدرك بالحواس ، وقالت بأن المادة جوهر ومبدأ أول ، وأن المادة هي الكل الموجود ، وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية .

ولقد اتسع نطاق مذهب المادية ، حتى عمّ الفكر الغربي كله ، وخلق ذلك الطابع المادي لحضارة الغرب . وقد جاء هذا الاتجاه نتيجة عدة مقررات توصل اليها بعض العلماء والفلاسفة . ولم تكن في واقع الأمر خالصة لوجه العلم ، ولكنها كانت مشوبة بطوابع الخلاف العميق الذي نشب بين الدين والعلم . وكانت له آثاره البعيدة في الفكر الغربي كله . فلقد كانت النزعة المادية في حقيقتها رد فعل عنيف لمقاومة رجال الدين لمقررات العلم مما حدا بالعلمانيين الى الوصول لآخر الشوط في التحدي ، وإنكار الغيب والروح

والوحي ، وكل ما يتصل بالدين جملة غير أن هذه النزعة لم تلبث أن خفت من ناحية ، وتضاعفت من ناحية أخرى ، فهي قد خفت من ناحية مقررات العلم نفسه ، فقد عدل العلم موقفه ، وصحح كثيراً من مفاهيمه ، وآب الى شيء من الاعتدال في الرأي .

أما التضاعف فقد جاء من الفلسفة التي أخذت مقررات العلم ، فتصرفت فيها تصرفاً خطيراً حيث أعلنت من شأن المادية ، ونقلتها من ميدان العلم الطبيعي الى مجال الفكر كله ، وإلى مجال الاجتماع والنفس والأخلاق . وكان هذا هو أخطر التطورات التي تحركت باسم العلمانية .

ومن هنا انفصل المذهب العلمي التجريبي ، الذي يقتصر مجاله على الطبيعة ، ويتحرك في حدود المحسوسات والتجربة ، عما أطلق عليه من بعد المنهج العلمي في المعرفة ، او وجهة النظر العلمية ، وهي في مجموعها من نتائج الفلسفة المادية ، وهي أخطر ما سيطرت عليه الايديولوجية التلمودية ، ووجهته وجعلته أساساً لما أطلق عليه العلمانية ، او علمنة الإنسان ، أي إخراجه إخراجاً كاملاً من إطار الدين تحت اسم إخراجه من إطار الأساطير والغيبيات والخرافات والأوهام .

ولقد يكون من حق أصحاب هذا المنهج أن يصوروا مفهوم الدين الذي عرفوه على هذا النحو . ولكنهم يخطئون خطأ كبيراً ، ويتجاوزون الحقيقة ، حين يعممون هذا الرأي على مفهوم الاسلام ، الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن المفاهيم الدينية التي عرفتها اوروبا ، فضلاً عن أنهم لم يستطيعوا بإنصاف أن يفهموا مقرراته .

أما العلم نفسه فقد رجع عن النظرية المادية ، لأن الحقائق التي تكشفت له دفعته الى أن يصحح موقفه . أما الفلسفة فإنها كلما زاد العلم اعتصاماً بالحق ، زادت هي إمعاناً ، في دعم النظرية المادية ، وتوسيع آفاقها . وكان أخطر تجاوزاتها في ذلك ما اطلق عليه العلوم الاجتماعية التي وقعت جميعها تحت سيطرة الفلاسفة اليهود: دوركايم وماركس وليفي بريل وسارتر وغيرهم ولقد حذر كثير من العلماء من خطورة هذه النظرة المادية الى الحياة، وأشاروا الى خطورة ما قد يكون لها من الآثار السيئة على سعادة الانسان وحرية^(١).

ولقد وقف كثير من الفلاسفة في صف النظرة العلمية ، وأنكروا تجاوز الفلسفة. بل ان هناك من ربط بين المادية وبين الفلسفة ، وليس بينها وبين العلم، إذ تجاوز العلم هذه المرحلة منذ وقت بعيد ، ولكنها ظلت قائمة مع الفلسفة. وان علاقة المادية بالفلسفة قامت في مواجهة المثالية والروحانية ، وأن هناك رباطاً وثيقاً بين الفلسفة والمادية . وليس كذلك بين العلم والمادية. ومن أكبر هؤلاء الباحثين (البرت لانجه) والحق أن العلم قد ارتبط بالمادية في مرحلة من تجاربه ، لم يكن قد انكشف له وجه الحق . ولكنه لم يلبث أن تجاوز هذه المرحلة حين تبين له أن هناك عالماً مجهولاً ، هو عالم الغيب، وأن طرقاً خفيفة اليوم على باب الغيب تكشف عن علامة واضحة بين العالمين .

يقول العلامة الطبيعي : كرسي موريسون (رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك) ان تحطيم ذرة النون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون الى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكثروثات طائفة قد فتح مجالاً

(١) دكتور زكي نجيب محمود في تلخيص كتاب النظرة العلمية لبرتراند رسل .

لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة تبديلاً جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي ، وان المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة ، وان الاكتشافات الحديثة قد بعثت النتائج التي وصل إليها الفلاسفة . والتي كانت قد حجبتها تماماً نظريات دارون .

إن وجود الخالق لتدل عليه تنظيمات لا نهاية لها . تكون الحياة بدونها مستحيلة . إن وجود الانسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه باري الكون . اه .

تلك هي الحقيقة الجديدة التي كشف عنها الحجاب للعلم . لقد استطاع العلم أن يصل الى نقطة خطيرة ، بل وعميقة الخطر والأثر في تاريخ العلم كله — تلك هي تدمير العلم للنظرية المادية نفسها .

وقد كان أولى بهذا الكشف العلمي أن يدرك قوائم الفلسفة المادية أيضاً . لولا ثقة القائمين وراء الايديولوجية التلمودية وشعورهم بالأمن إزاء عجز الفكر الغربي عن التكامل . وأن انشطاريته لها أبعد الأثر في تمزقه على النحو الذي لا يجعل لكشف هذه الحقيقة الضخمة أثرها في مجال الفلسفة المادية .

نعم : إن هناك حقيقة كبرى يضعها العلم بين أيدينا اليوم ، لطالما التمسها الباحثون الذين عارضوا المادية ، وواجهوها بالنظرة الفاحصة . وفي مقدمتهم « فريد وجدي » صاحب كتاب « على أطلال المذهب المادي » ، تلك هي « المادة نفسها التي يرتكز عليها القانون الطبيعي » ، قد حطمتها اليوم العلم نفسه ، لم تعد العينة الصلبة من المادة ، هي أساس الطبيعة ، لقد كشف العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي . هو أن أساس الطبيعة هي الحركة ، وليست المادة ، الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك ،

فتتضمني الشكل المادي للأشياء . وهذه الذرات هي الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي . وهو إيماء عجيب للإنسان المعاصر بزيغ هذه الثنائية التي قسمت خلق الله الى قسمين ، وأقامت بينها جداراً من التباعد والصمت . « إن الحركة – هذا المعنى الكبير – هي أساس الوجود المادي تماماً ، كما هي أساس الوجود المعنوي » (١) .

(٤)

يقول الدكتور علي توفيق شوشه : ان السنوات الأخيرة جاءت بتطور في العلم ، قضى على ثلاثة مذاهب : النظرية المادية – النظرية الميكانيكية – النظرية الحتمية .

لقد اتسع التحقيق العلمي اليوم للمجهول ، وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة منه وراء المظاهر . وأن الكون ليس حقيقة في ذاته ، وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة ، وليس هناك من شك في أن قوة مدبرة مفكرة ، هي التي ابتدعت الكون ، وإلى هذا توحى الاكتشافات العلمية الأخيرة .

هذا القول هدم نظرية المادة ، وهو الذي أثبت أن الذرة تتكون من الكثرونات « كهارب » تدور حول بروتونات على نظام .

ويقول الدكتور محمد عبد الخالق : ان الأساس الذي قامت عليه المذاهب العلمية في القرن التاسع عشر ، قد انهار ، وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن

(١) دكتور عماد الدين خليل .

الكون ، وعن الإنسان ، وعن الحياة بمعارات جديدة ، الآن يكشف العلم عن ميادين جديدة تبحث عن الأرواح وأصل الحياة وغاية الوجود . ان مذهب دارون فرض ، وليس حقيقة غير قابلة للنقض .

وقد أكد الباحثون أنه في ضوء ما تثبتته التجربة ويؤيده الاختبار ، أنه ليس بين الدين والعلم خصومة بحال ، فليس من مباحث العلم إثبات وجود الله ، ولا إثبات نبوة الأنبياء ، لأنها ليسا مما ينال بالتجربة ، او يقع تحت الاختبار . وان للمعرفة طرائق معدودة : منها التجربة ، وقد اختصت بها العلوم الطبيعية ، ومنها البرهان والقياس .

إذن ليس بين الدين والعلم خلاف ، ولكن الخلاف بين الدين والفلسفة ، وفرق بين العلم الثابت بالتجربة والفلسفة التي هي فروض ذهن ما . وان الخطأ الحقيقي هو في التوسع في إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة .

وترددت آراء أخرى في هذا المجال تقول : إذا كان العلم أداة للمعرفة ، فالإيمان أيضاً أداة للمعرفة ، وهو أسلوب آخر يصلح لبحث او استكشاف حقائق أخرى لا يسع العلم إلا الإقرار بعجزه حيالها .

فالعالم موقت وعارض يجري عليه قانون التبدل والتحول ، فكم من حقائق علمية ظنها الجميع ثابتة ، أنكرها العلم نفسه بين عشية وضحاها ، والحقيقة أن كل شيء في العلم قابل للمراجعة والهدم . وأن الحقائق العلمية افتراضات نسبية مقيدة ومؤقتة ، وما عمل العلم غير مخاطبة الطبيعة جهده دون ابداء أية حقيقة مطلقة ، فليس له ما يخوله حق ابتكار او إثبات النبوات والمعجزات . فالعلم على هذا غير كفيل بحل المشكل الإنساني برمته ، وان طرائقه العلمية لا تصلح إلا مطابقة على الظواهر فقط ، وأنه لا يملك حق التدخل القاطع في عالم الروح الذي يفوق حدود تخصصه ، ولا يمكنه منها

علل ، او اكتشف أن يرضي جميع خوالج النفس ، وما يخفق بها من عواطف (١) .

(٥)

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني : كان الظن الى عهد قريب . أن المادة لا تنقسم الى ما لا نهاية له . بل تقف عند جزء لا يتجزأ ، هو الذي سموه « الذرة » او الجوهر الفرد ثم أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة ، فبعض الذرات تنفجر من تلقاء ذاتها كذرات الراديوم واليورانيوم وغيرها من العناصر ذات النشاط الاشعاعي ، وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها في أغراض الحرب والسلم ، وتغير مفهوم المادة القديم فأصبحت المادة طاقة . وأمكن تحول المادة الى طاقة ، والطاقة الى مادة ، وأصبحت المادة والطاقة مظهرين لشيء واحد .

وكانت معارضة المادية القديمة للأديان من جهة قولهم : إن المادة هي كل شيء ، هي أصل العقل والشعور ، وليس العقل إلا إفرازاً من إفرازات المخ . أما الخلاف الفلسفي بين مادية اليوم ومادية الأمس ؛ فإنه يقع في الاتجاه الحديث الذي يسلم بالقيم . اهـ .

وقد جاء نتيجة لهذا الكشف الخطير تحول واضح في آراء العلماء ، يقول (بوترو) : إن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ، وهما في

(١) من بحث للاستاذ ابراهيم المصري عن العلم والدين .

تصارعها يخلقان قوة وحيوية وخصباً ، ولن يصلأ الى اتحاد (١) ، لأن كليهما متميز عن الآخر ، ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر . وان المفكرين يرون عجز العلم عن حل المشاكل ، والعلم مهما تقدم فهو محدود . وبذلك لا بدّ من الرجوع الى ما يسد الفراغ وذلك عن طريق تمسك العالم بالروحانية ، واعتماده على القلب والعاطفة . اه .

وكذلك يصل العلماء اليوم الى إقرار حقيقة تدحض تطاول العلم ذلك .

إن العلم عاجز عن أن يضيف شيئاً او يقدم شيئاً ما في عالم الطبيعة .

يقول سير جيمس خيتر عالم الطبيعيات والرياضيات : إن كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي الى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وجملة القول ان العلم قد وصل الى حقيقة أساسية تحتم عليه نقض مفهوم المذهب المادي نهائياً ، والانفتاح الى عالم الغيب . تلك هي التي أكدها العلماء حين كشفوا أخيراً ان المادة والطاقة شيء واحد .

يقول تجايمس تجينر (في كتابه العالم من حولنا) : كان حجب الزاوية في علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر هو بقاء المادة او خلودها من جهة ،

(١) يختلف الاسلام مع رأي العالم الغربي في ان العلم عنصر من عناصر الاسلام ، وأن المنهج العلمي التجريبي من معطيات الاسلام أصلاً . وليس في الاسلام انفصال بين الدين والعلم . ولكن هناك تكامل وترايط .

وبقاء الطاقة من جهة أخرى، قد بطل بطلاناً تاماً ، وأقيم مقامه ناموس آخر
هو بقاء ذاتية واحدة هي المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المادة
والطاقة على حدة خالدي البقاء او متغيرتين. بل هما متغيرتان معاً من حال الى
حال ، لأنها شيء واحد ، المادة تصير شكلاً من أشكال الطاقة ، هذه الطاقة
التي تنشئ الحياة على الارض .

الفصل الثاني
العلمانية والفلسفة

إن كل الدلائل تدل على أن النهج الذي اتخذته العلمانية ، هو نهج الفلسفة ، وليس نهج العلم التجريبي . ذلك من ناحيتين : من ناحية أن العلم التجريبي قصر مجاله على علوم الطبيعة والرياضة ، وأنه لم يتجاوزهما ليتصدى لميادين أخرى تتعلق بالإنسان والمجتمع . والآخر أنه آب في الزمن الأخير فخفف من غلوائه واعترف بأنه قد قصر مهمته على تفسير ظواهر الأشياء ، وأنه حطم من بعد النظرية المادية ووصل الى حقيقة تكشف عن صلة بين عالم المحسوس وعالم الغيب .

إذن فالعلمانية ليست من نتاج العلم ، ولكنها من نتاج الفلسفة ، ولكي نفهم تيارات الفكر الغربي على وجه صحيح ، فإن علينا أن نكشف عن الفوارق العميقة بين العلم والفلسفة . فالعلم هو ما يجري داخل المعامل ، أما الفلسفة فهي ما يقوله أصحاب الايديولوجيات ، العلم واقع قائم على حساب وتجربة ، أما الفلسفة فهي نظرة عقل نافذ ، وفرضية رأي يخطئ ويصيب .

والعلم حقائق قابلة للنقض والتغيير.. أما الفلسفات فهي نظرات تخضع

لظروف ومواصفات وتحديات في العصر والبيئة ، فهي بذلك معرضة للخطأ والصواب ، وصالحة لعصر دون عصر ، وبيئة دون أخرى ، وهي من هذه الناحية خاصة وذاتية بخلاف العلم الذي هو تراث إنساني مشترك بين سائر البشر. أما الفلسفات فهي ليست كذلك تماماً ، فلكل فكر فلاسفة ، ولكل أمة نظرياتها المنبثقة من قيمها الأساسية ، ودينها وتاريخها وتشكلها النفسي وذاتيتها الخاصة وروحها ووجدانها ومزاجها ، وهي من أجل هذا غير قابلة للتصدير أو الاستيراد . ولما كانت تتصل بالنفس الإنسانية ، فإنها لا تخضع للمنهج الذي تخضع له الأحجار ، أو الحيوان ، ولما كانت تتصل بالاجتماع أو الاخلاق والعلاقات الإنسانية ، فهي تنبع أساساً من منابع الأمة ، فللعرب والمسلمين منابعهم ومفاهيمهم التي تترجم نظرتهم الى الحياة ، وأسلوبهم فيها ، وللغرب مثل ذلك مما يختلف ويتفاوت . وهكذا تختلف مناهج الفلسفة عن العلم اختلافاً كبيراً . ومن هنا كان خطأ القائلين حين يتكلمون عن نظرية ما في النفس أو الاقتصاد أو الاجتماع ان العلم يقول كذا : فليس ما تورده نظريات النفس والاجتماع والاقتصاد على عمومها ، علماً بمفهوم العلم التجريبي ، لأنها أمور لا تخضع للتجربة والمحسوس . وإنما هي تخضع لمنهج من مناهج المعرفة له طابع علمي . ثم هي بعد ذلك وجهة نظر فلسفية قامت على الفرضية ، ثم يجيء التطبيق بعد ذلك ليكشف هل هي حقاً صالحة متسقة مع الفطرة الإنسانية أم معارضة لها .

والفلسفة الغربية في مجموعها هي محاولة لتفسير العالم والحياة والمجتمع عن طريق العقل مع التجاوز التام عن منهج الدين ، وإنكار العالم الآخر ، وكل ما يتصل بما وراء الطبيعة ، أو ما وراء المادة. والمعروف أن الفكر الاوروبي قد تجاوز النظرة الدينية على أثر خلافات واسعة كبيرة ، وقد مرت هذه الخلافات بمراحل متعددة : منها مرحلة المثالية الفلسفية ، ثم مرحلة المادية

الفلسفية . وقد انتقلت الفلسفة الغربية بين عديد من النزعات العقلية والتجريبية والوضعية . وكانت في أول أمرها تجمع بين وثنيات اليونان ، وعقائد الرومان . ثم تأرجحت بين قيم المسيحية وقيم المادية . وجرت في مصارعة هائلة بين قيم الروح والضمير والاخلاق والبصيرة من ناحية ، وبين المادية والإلحاد والإباحة من ناحية أخرى .

وجاء ذلك الترابط بين النظريات العلمية وبين الفلسفة في دارون ونيتشه ، واتخذت نظرية التطور البيولوجي منطلقاً الى نظرية عامة في التطور الاجتماعي . وجرى الصراع في الفلسفة الغربية بين المثالية والمادية طويلاً ، وانتهى بالغلبة لجانب المادية .

ولقد كان ذلك الانحراف الى المادية الغالية القائمة على التحرر والانطلاق والإباحة نتيجة لانحراف سابق وصل الى أقصى مداه في الزهادة والرهبانية ، واعتزال الدنيا وإنكار متاعها .

فليست الفلسفة الغربية في مرحلتها المادية القائمة إلا نتيجة من نتائج الصراع الهائل بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، والدين والمادية .

فقد قامت الفلسفة المادية على أساس واضح هو معارضة الدين والاخلاق ، ونقد المسيحية ، واتهام الدين بأنه مخدر . ولذلك فقد أنكرت هذه الفلسفة الغيب والروح ، وهاجمت مختلف مفاهيمه ، وعارضتها معارضة تامة ، فأعلنت أن الجنس هو أبرز دوافع الإنسان . وأن الإنسان حيوان ، وأن الدين ليس فطرة ، وأنه ليست هناك اخلاق مثلى دائمة ، وأن الحق للقوة ، وأن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الانسان ، وأن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها وأن الجريمة ظاهرة سوية .

وقد واجهت الفلسفة الغربية نظريات متعددة متعارضة دارت حول إعلاء

الفردية ، او الجماعية . والمعروف أن الفكر الاوروبي قد انحرف نحو جانب الفلسفة المادية على أثر انتصارات العلم المتوالية التي بلغت الى حد إنكار ما سوى المحسوس ، وقد ظل الخلاف بين الدين والفلسفة يتسع ويعمق حتى وصل الى حملة كاملة على كل مقررات الدين وكتبه ، وكانت الكنيسة هي الهدف الأكبر لهذه الحملة، غير أن الاتهام الذي وجهته الفلسفة للدين في الغرب لا يمكن أن ينسحب على الدين كصيغة عامة . وإنما هو متصل بالمفاهيم الدينية التي عرفت في اوروبا ، والتي وصفها أحد كبار فلاسفتهم بول فاليري « مسيحية القديس بولس » .

(٢)

يقرر اتباع الفكرة العلمانية ، أن عقيدتهم العلمانية ترفض اعتبار الدين أساساً لحياة الجماعات البشرية ، أو أساساً من أسس القومية ^(١) وأنها تدعو الى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة والتحرر من العقائد الغيبية ؛ ومن العواطف بكل ضروها وطنية كانت او دينية ^(٢) وأن العلمنة هي دراسة الانسان والمجتمع ، كما تدرس الاشياء بشكل موضوعي ، وأن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي يتشكل منها دستوره ، فلا يحتاج الى أية قوة خارجة يستعين بها في تفسير ما يحدث فيه . وأن هذا المبدأ « الحسي الزماني الدنيوي العلماني » هو الذي يسود العقل الحديث ^(٣) .

ومن خلاصة هذه المفاهيم يتبين أن العلمانية تعتمد منهجاً خاصاً لتفسير الحياة والمجتمع يقوم على أساس النظرية المادية ، والمنهج التجريبي والعقل

(١) جوزيف مفيزل مجلة العلوم ١٩٥٩ من بحث مطول عن العروبة والعلمانية .

(٢) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر .

(٣) مجلة مواقف م ٣ .

الخالص، هذا المنهج هو ما أطلق عليه بعض العلمانيين « النظرية العلمية »^(١) ،
او وجهة النظر العلمية ، على النحو الآتي :

اولاً : النظرية العلمية هي مفهوم فلسفي (لأن العلم الذي يدرس ويقيم
النتائج الأساسية للعلوم المختلفة ، هذا العلم الذي يدرس أشمل وأعمّ قوانين
الحركة في الطبيعة والمجتمع والفكر يمثل وجهة نظر الفلسفة المادية) .

ثانياً : إن التخصص العلمي رغم أهميته وضرورته المستمرة الدائمة : ليس
هو وجهة النظر العلمية . كما أن العلم لا يقاس بمنجزاته فحسب ، بل بأثر
هذه المنجزات المادية على الحياة الاجتماعية والعقلية والنفسية ، وأن وجهة
النظر العلمية لا يمكن أن تستخلص او تعمم فقط بناءً على نتائج أحد العلوم
الجزئية : أنها لا تقوم إلا على أساس تعميم نتائج العلوم الجزئية المختلفة بما
فيها علم الاجتماع في شتى المجالات .

ثالثاً : تقوم النظرية العلمية على أساس أن الطبيعة والمجتمع في حركة وتغيير
لا ينقطعان . والنشاط البشري يتطور دوماً الى الامام ، ولا يعرف الغائية
ولا الاستقرار . ويشدد الباحث في التحذير من الخلط بين العلم بالمعنى التخصصي
الضيق ، وبين وجهة النظر العامة .

ومعنى هذا أن الفلسفة المادية قد وصلت بعد أن طرحت مذاهبها المختلفة
في النفس والاخلاق والاجتماع والاقتصاد الى إقامة منهج شامل هو ما أطلق
عليه وجهة النظر العلمية ، وقد اعتبرته منطلقاً لمواجهة ما أسمته وجهة النظر
الدينية من حيث إن الدين منهج كامل تجاه الانسان والمجتمع ، فهي أيضاً
تقوم بنفس ذلك .

(١) ١٩٦٧ مجلة الفكر المعاصر .

أما أساس الاختلاف بينها في تقدير النظرية العلمية المادية فهو « إن وجهة النظر الدينية تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال الى عالم أخروي أفضل بحيث يتحتم على السلوك الإنساني في هذه الحالة أن يتجه بكلية نحو العالم الآخر » ثم إن الأديان « تضع حدوداً للمعرفة البشرية لا يمكن لها ان تتخطاها، بينما النظرة العلمية لا تضع حدوداً البتة، إلا فيما لا يستطيع العقل والعلم ان يصل فيه » ثم إن النظرة العلمية تعتمد على العقل اعتماداً كلياً بينما لا يفعل الدين الذي يفرض (الغائية) وتقرر النظرية ، (أنه منها اختلفت الأديان فهي في نظرتها الى الكون والمجتمع والإنسان واحدة) وأنه منها اختلفت الأديان فهي في مجموعها ضد النظرة العلمية .

هذه خلاصة مفهوم « النظرة العلمية » التي يراد طرحها كمنهج في مقابل منهج الأديان وتحدياً له، ومن هذه « النظرة العلمية » تتشكل الحلقة الأخيرة للعلمانية التي يراد فرضها على العالم الاسلامي ، والفكر الاسلامي ، والذات العربية لكي تكون قادرة على الخروج من وجودها ، وبذلك تتحقق حركة التحديث العربية والعقلانية العربية والمصرية العربية .

(٣)

أكبر مخالفات المنهج العلمي ، او النظرة العلمية لطبائع الاشياء هو قصورها على الجانب المادي وحده ، وتجاهل الجوانب الأخرى للانسان واللفطرة وللمنهج المعرفة ، ذلك أن في الحياة والفكر جوانب متعددة ، كما أن في مناهج المعرفة نظرات متعددة ، وأساليب مختلفة ومن هذا فإن الاختصار على جانب واحد ، منها يحول دون الوصول الى الحقيقة ، التي هي هدف المناهج العلمية .

إن مصادر المعرفة في مفهوم الاسلام متعددة : منها الوحي ، وهو أسمى المصادر ، ومنها التاريخ يعده الاسلام مصدراً من مصادر المعرفة بكشف سنن الله في الكون ، وقوانين الحركة للحضارات والأمم ، ومنها النفس الانسانية ، وكل ما يرتبط بالإنسان في تكامله ، ومنها الكون والآفاق . (سزيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ثم هناك المنهج العلمي التجريبي القائم على الاختبار والتجربة ، فالمعرفة الانسانية لا تتكامل إلا إذا استطاعت أن تشمل كل الآفاق ، وأن تصل الى مختلف الأبعاد وهي لا تتكامل ولا تستوعب كل الجوانب إلا اذا التمسست منهجاً كمنهج الاسلام . أما منهج العلمانية فإنه قاصر قصوراً شديداً ، لأنه يقف عند المادية . وهي ليست كل ما في الحياة ، فضلاً عن أنها أعلنت عن قصورها على السنة علمائها

أنفسهم ، ولأنه يقف عند العقل وحده ، والعقل أداة عظيمة لا شك في مكانتها ، ولكنها محدودة العطاء ، لأنها ذات وظيفة محدودة ككل وظائف الأعضاء وهي لا تستطيع ان تدعي القداسة، او تكون موضع العبادة، لأنها أعجز ما تكون خارج ميدان وظيفتها . وكما ان العلم طاقة واحدة من مجموع طاقات وهبها الله للانسان . فإن العقل كذلك مجموعة معطيات لها مجاها الحدود ، فإذا خرجت عنه عجزت عن ان تحقق شيئاً .

ومجال المادة هو المحسوس ، ووظيفة العقل هي فتح آفاق الحياة للانسان، والمادية لن تكون بأي حال أساساً للمجتمع البشري، لأن في المجتمع عشرات القوى غير المادة .

وحيث لا يستطيع العلم ان يكون منهجاً للحياة ، لأنه بذلك يتجاوز مهمته ، فإن العقل كذلك لا يستطيع ان يكون الوسيلة الوحيدة للمعرفة الانسانية .

فالعلمانية هنا ، القائمة على (المادة والعلم والعقل) إنما تريد ان تمثل الحياة من وجهة جزئية صرفة ، ثم تتجاوز جوانب كثيرة تعتبرها في حكم العدم ، بينما هي حية موجودة قائمة لها دورها وأثرها . وذلك هو قصور الفلسفة المادية بعد ان نزل العلم التجريبي عن اعتداده واستطاعته، ورجع الى موقف الاعتدال ، وأعلن أن هناك عالماً غير العالم المحسوس ، وأن العلم يحاول اليوم ان يطرق بابه .

(٤)

تريد العلمانية أن تحاكم المفاهيم الانسانية في مجال النفس والاخلاق والاجتماع الى المنهج العلمي (القائم في حدود ما تدركه الحواس ، وما تؤيده التجربة) في حدود العلم والعقل والمادة وحدها .

فهل في استطاعة هذا المنهج حقيقة ان يكون قادراً على استيعاب الانسان في جوانبه المختلفة ، عواطفه وأهوائه ومشاعره وأشواقه وغرائزه وطواياه الخفية . هل يستطيع منهج العلوم الذي يقوم على تجربة المعمل أن يستوعب الحياة الانسانية ، وهو ليس قائماً أساساً من أجلها .

لقد كان من المقرر أساساً لدى الباحثين والعلماء ، أن هناك ثلاثة مجموعات من العلوم لكل منها منهجه الخاص المستقل المختلف .

أولاً : العلوم الرياضية ، ويتبع في بحثها المنهج الرياضي .

ثانياً : العلوم الطبيعية والبيولوجية ، ويتبع في بحثها المنهج التجريبي .

ثالثاً : العلوم الانسانية والاجتماعية ، وهي لا تخضع للمنهج الرياضي ، ولا المنهج التجريبي . وإنما تخضع لمنهج خاص يتلاءم مع طابعها النفسي والوجداني ذلك لأن موضوع العلوم الرياضية والطبيعية ، هو المادة والطاقة ، بينما منهج

العلوم الانسانية والاجتماعية فإن مادته هو الانسان سواء أكان فرداً
او جماعة .

وإذا كانت العلوم الطبيعية تحتكم الى التجربة العلمية في فحص مقرراتها .
فإن العلوم الانسانية لا تملك ما يملك العلم الطبيعي من التجربة العلمية ، ذلك
أن هذه العلوم الانسانية ، إنما تتصل بالنفس والروح والعقل ، وكلها لا تخضع
للقوانين التي خضعت لها المادة ولا القوانين التي أمكن استخلاصها من دراسات
الحيوانات . فالإنسان حيوان وزيادة ، لأنه يتميز عن الحيوان بشيء او أشياء .
فتطبيق التجارب التي تجرى على الحيوان إذا أجريت على الانسان ، لا تكون
محققة للنتائج تماماً لأنه سيظل هناك ذلك الجانب الذي يتميز الانسان به على
الحيوان .

ولا ريب أن كل القوانين التي تطبق على الحيوان لا تصلح له لأنه أكبر
منها . وأبلغ أخطار هذه النظرة التي تحاول أن تخضع العلوم الانسانية
والاجتماعية لتجارب العلوم الرياضية ، او تجارب الحيوان ، أنها تحاول اعتبار
الانسان قيمة مادية خالصة ، بينما يزيد الانسان على الحيوان شيئاً كبيراً ، هو
الذي يتميز به حتى أنه أصبح سيد المخلوقات وصاحب الأمانة ، ومن هذا
التميز العقل الذي هو مناط التكليف والإرادة الحرة التي هي معقد المسؤولية
الأدبية ، والتبعة الاخلاقية . فإذا اعتبرنا الانسان مادياً صرفاً كما تعتبره
الفلسفة المادية ، سقط امتيازاه على الكائنات . وسقطت في نفس الوقت
مسؤوليته المرتبطة بالبعث والجزاء .

وهذا هو أخطر خلاف جذري بين مفهوم منهج المعرفة الاسلامي ،
ومفهوم العلمانية . ومن هنا كانت إقرار الاسلام لمنهج خاص لدراسة العلوم
الانسانية والاجتماعية ، يستمد مفاهيمه من الانسان نفسه ، ومن سنن الله في
الكون ، وهو علم منفصل عن العلوم المادية والبيولوجية والرياضية له مقوماته

وقوانينه ، وهو أول معطيات الوحي ورسالات السماء ، وهو العلم الذي يطلق عليه الباحثون المسلمون ، علم الفطرة .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : إذا قدر للانسان في علومه المختلفة أن يحيط بالفطرة فسوف يستطيع أن يهتدي الى فلسفة غير فلسفة الحاضر ، عندئذ يرى الانسان أن سنن الله في الكون واحدة في أطرافها وتناسقها ، وفي دقتها وصرامتها ، لا سبيل الى تغييرها ، او الإفلات من عواقب مخالفتها سواء ذلك من ناحية المادة ، او الطاقة الكامنة فيها ، وناحية النفس والروح في الأفراد والجماعات .

فإذا كان العلم قد اكتشف سنن الله الفطرية ، فإن عليه أن يهتدي الى سنن الله في الانسان والمجتمع . لقد تحقق الكشف عن سنن الفطرة في المادة ، وبقي أن نكتشف سنن الفطرة في الروح ، روح الفرد ، وروح الجماعة ، إن كتاب الله فاطر الفطرة يخبر بما جهلته الفلسفة ، ولم يدركه العلم . فإن الله سنناً لا تتخلف جرت في الأولين بالإهلاك حين عصوا ، واتبعوا أهواءهم ، وهي جارية ولا شك في الآخرين . «فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها» ومعنى هذا كله أن هناك منهجاً للمعرفة خاصاً بالإنسان ، ومنهجاً خاصاً بالكون . أما منهج المعرفة الخاص بالكون فقد هدى الله إليه الانسان بالتجربة ، أما منهج المعرفة الخاص بالانسان نفسه ، فإنه لما كان من العسير على الانسان ان يعرف نفسه بنفسه ، فقد هداه الله إليه بالوحي في رسالات السماء ، ووضع له ذلك المنهج الذي اعترف فيه برغباته ، ووضع له من الضوابط ما يحقق له السعي في الأرض وعمرانها والاستمتاع بها دون أن يسقط في حماة الفساد ، او الانحلال ، او الاباحية ، وكشف له عن التكليف والمسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي وهي جميعاً مناط الحساب والجزاء في يوم البعث . فإذا جاءت العلمانية اليوم لتضع منهجاً بشرياً في المعرفة الانسانية فإنها سوف تعجز عن أن تحقق رسالة الانسان على النحو الصحيح .

ولسوف تتدخل الأهواء الذاتية والفروض والمطامع لتجعل الانسان متجاوزاً لغاياته ، منكراً لمسؤولياته ، مندفعاً الى رغباته ، دون تقدير لمقدرة جهازه الجسمي ، فضلاً عن فساد غايته التي قامت عليها الحياة في هذه الارض .

ولقد تجاوزت العلمانية الغاية في نظرتها الى الانسان على أنه مادة ، وتطبيق تجارب الحيوان والحشرات عليه ، ومحاكمته الى القوانين التجريبية ، وكان من نتيجة هذا التجاوز تلك المذاهب في علم النفس والاجتماع والاخلاق والوجودية وغيرها من فلسفات تريد أن تحاكم الانسان الذي هو مادة وروح الى ما تحاكم به الظواهر المادية .

(٥)

من أخطر ما تعتمد عليه (العلمانية) في إقرار منهجها (العقل) . وقد أعلنت المادية من شأن العقل حق وصفته بالقداسة ، والعقل في حقيقته واحد من معطيات كثيرة للانسان ، منها الإرادة والعاطفة والروح والنفس والقلب ، وبالعقل يتميز الانسان عن الحيوان والنبات ، وبالعقل تدرك قوانين الاشياء والعلاقة الثانية التي تربط أحدهما بالآخر ، وهو مناط التكليف الشرعية في الاسلام . ولكن نظرة الاسلام له تكشف عن أنه جزء من شيء أكبر .

فعلماء المسلمين يصفون العقل بأنه « جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب » وهذا الوصف من أعرق ما عُبرَ به عن العقل وحقيقته ودوره . ويقول الباحثون ان العقل ملكة سلبية ^(١) وإنه أداة الوعي والإدراك فقط ، ولكنه لا يملك طاقة الفعل وإدارة التصرف ، حيث ان الفعل والتصرف من خصائص الإرادة الانسانية .

والعقل شرطه ان تم الخطوات منه مرتبة على نحو يجعل السابق فيه مرتبط باللاحق .

(١) من بحث لعالم كبير .

وفي مفهوم الاسلام ^(١) ان العقل يهتدي بالوحي ، وأن الدين يقود العقل الى الصواب . والاسلام يرمي الى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله ، فهو لا يتقيد إلا بما جاء من عند الله ، ولا يقيم وزناً للسحر او الكهانة او الأساطير او ما يوصف بأنه من تأثير القوى الخفية .

وفي مفهوم الاسلام أن العقل من خلق الله ، فهو يخضع له ، فلا يشترك معه في الألوهية ، وقد أودعه في الانسان ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه ويهتدي به في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له وليس لكي يعبد الانسان العقل من دون الله .

فللعقل أن يحول في الكون ويتأمل ويدرك ويستخرج ما يهدي إليه .

وعلى العقل أن يسلم بالأمور التي بينها الله في قرآنه ، ولا يشتط فيدعي أنها غير صحيحة ، فهو خلق من خلق الله .

« والعقل واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ، ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله » . « فالعقل ليس له صفة القداسة ، او القدرة الكاملة ، وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات ، ولكنه ينكشف أمام نور الله » .

« والعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون ، او أن يضع مبادئ المعرفة ، والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضال من نور الله ، فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه » .

والعقل الاسلامي يتفق في نتائجه وطريقه مع الاخلاق ، فهو الذي يدل

(١) الدكتورة بنت الشاطيء : مقالة في الإنسان .

على الخير ويهدي إليه. أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية الى السوء، فليست من صنع العقل، وإنما هي من صنع النفس الأمارة بالسوء، ولو رجع الإنسان الى عقله رجوعاً سليماً لأبأها.

والعقل الاسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر والقوى الخفية، والخضوع لغير الله، وليس العقل البشري نداءً للوحي، ولكنه مهتد بالوحي، وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره، وليس له قدرة على معارضة الوحي، او تقديم تفسير آخر. اهـ.

وهكذا نجد موقف الاسلام واضحاً، هو تحرير العقل من كل سلطان^(١) إلا سلطان الله، وهو جزء من دعوة الاسلام الى تحرير النفس الانسانية والعقل الانساني من الوثنية والشرك والوساطة والمفاهيم الزائفة، وتخليصها من عبادة ما سوى الله، ومن كل عبودية لغير الله، سواء أكانت بطلا أم لا، أم رغبة.

والعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق، او ان يضع مبادئ المعرفة فضلاً عن أنه ليس هناك عقل مطلق مجرد من البغض والشهوة.

وقد تأكد أن طبيعة تكوين عقلنا ترتبط بوظيفة الانسان في الارض، وهو القدرة على التقدم في إدراك قوانين المادة وتسخيرها وعجزه عن استكناه أسرار التكوين الانساني، وسيظل سر الروح الانساني بعيداً عن مجال إدراكه كي يظل عاجزاً عن وضع التفسير الكامل للكون.

وقد أكد العلماء أن العقل لا يستطيع أن يحكم على الاشياء إلا إذا حصرها

(١) من بحث مستفيض مؤلف كتاب « خصائص التصور الاسلامي »

بين جناحي الزمان والمكان . أما ما عدا ذلك فليس عليه للعقل سلطان ،
والعقل محدود فلا يستطيع أن يتصور غير المحدود ، ولا يحكم على غير المتناهي ،
والعقل لا يتصور الخلود ، ولا يستطيع أن يحكم على الله أو صفاته أو قضائه
وقدره ، ذلك أن الله عز وجل غير محدود . فالعقل لا يستطيع أن يحكم
عليه ، ويختل ميزان العقل إذا حاول الحكم على غير المحدود ، ويقع في
التناقض هذا فضلاً عن أن العقل لا يستطيع أن يحكم ولا يصح حكمة إلا في
الأمر المادية ، أما وراء المادة وعالم الغيب فلا يستطيع تجاوزه ^(١) .

وفي تقدير مفهوم الاسلام أن العقل أحد وسائل المعرفة ، وجناح من
جناحيها ، وللمعرفة جناحان ، عقل وإيمان ، ولكنها لا ينفصلان ، والإيمان
أساس وطريقه الوحي ، وهو فيما يقرره لا يلتبس رأي العقل ، لأن ذلك
أكبر من ميدانه .

ومن هنا يكون الخطأ الجسم الذي تقول به العلمانية والمادية من أنه لا
توجد حقيقة غير خاضعة للعقل ، ذلك أن هناك حقائق كبرى لا يستطيع
العقل أن ينظر فيها . وأن العقل في حدود وظيفته وقدرته ليس مكلفاً بهذه
الحقائق ، وليست له القدرة أو الأجهزة التي تمكنه من النظر فيها .

وللعقل بدهاة ترى أن الكون مصنوع ، ولا بد له من صانع . ولذلك
فإن الإلحاد هو عصيان بدهاة العقل والاسلام لم يهدنا الى شيء يعارض العقل
والفطرة . فالشريعة تطابق العقل والفطرة وعوالم الغيب من وجود الملائكة ،
ودار الثواب والعقاب كلها أمور ممكنة يدركها العقل ولا تنجافي أحكامه ،

(١) راجع المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى للغزالي .

ولا يستطيع العقل أن يقيم الدليل على عدم وجودها ^(١) . ومن هنا وفي ضوء هذه الحقائق يبدو اعتساف النظرة العلمانية القائلة بسيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة منكراً كل وسائل المعرفة الأخرى من وحي وقلب وتاريخ وفطرة ، وهو قول لا يراد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله ، أو إحلال المعرفة بديلاً عن الإيمان . ولن تستطيع البشرية أن تجد طريقها الحق إذا أبدلت بالدين العقل ، أو جعلت المعرفة بديلاً للإيمان ، فالعقل والمعرفة قيمتان معرضتان للأهواء والأخطار والعجز الذي تحيز منها من كل مكان . وليس في الإمكان أيضاً إخضاع الدين للعقل ، وستبقى العقلانية والتجريبية في مكان العجز والقصور . وفي منطقة واحدة من مناطق المعرفة الواسعة الكثيرة الأبعاد ، وسيظل نتاجها قاصراً في حدود المادة وحدها . وإلا فهل في وسع العقل أن يتجاهل العاطفة والوجدان والروح والتدين والحب والبغض والقيم الجمالية ، وكلها مما لا يدخل تحت نفوذه ، ولا يمكن إخضاعه له .

ومن هنا يحىء منهج المعرفة الاسلامي في القرآن الكريم شاملاً يخاطب العقل والروح والعاطفة ويخاطب بالبرهان والحس وبالتاريخ والمبرة ، ويخاطب الانسان من كل جوانبه ونواحيه .

وخلاصة القول أن العقل وحده عاجز عن أن يصل الى الصواب والعقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء في جميع المضلات وتمجيد العقل واعتباره سبيلاً وحيداً للمعرفة ليس نظرية إسلامية . وقد وصل الى ذلك بعض الفلاسفة الغربيين وقال برجسون إن الذهن البشري وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة .

(١) محمد فريد وجدي .

وقد ظهرت أحاديث زائفة منسوبة الى الرسول وضعها دعاة الأفلاطونية المحدثه عن خلق العقل وغيره . وقد هاجم الإمام ابن تيمية هذه الأحاديث وأثبت وضعها .

مهمة العقل هي البحث عن العلاقة بين الاشياء ، والبحث عن هذه القوانين . فإذا تجاوز مهمته تلك عجز أن يحقق شيئاً ، شأنه في ذلك شأن العلم الذي هو محاولة لتفسير ظواهر الوجود . فإذا تجاوز ذلك لم يحقق شيئاً.

(٦)

من أخطر الخلافات بين مفهوم العلمانية ومنهج المعرفة الاسلامي - القيم
الثابتة - والقيم المتطورة او المتغيرة .

ذلك ان من أخطر ما تهدف إليه الفلسفة المادية ورببيتها العلمانية القول
بالتطور المطلق الذي لا ثبات معه على نحو يعرض للدين والقيم الروحية
والخلاقية بالتشكيك والاضطراب . إن التطور والحركة ظاهرة طبيعية ،
ولكن أين تجري الحركة او التطور ، هل تجري في الفراغ المطلق ، أم تجري
داخل إطار ثابت . ذلك هو التجاوز الخطير الذي تجنح إليه الفلسفة المادية
جرياً وراء خطها الواضح خط التجزئة والانشطارية .

لقد نشأت فكرة التطور في مجال البيولوجيا ، كنظرية علمية محضة ، ثم
نقلها الفلاسفة الى مجال المجتمعات والفكر . وجاءت قوى ذات أهداف معينة ،
فركزت على فكرة التطور ، وأعلتها إعلاءً خطيراً حتى جعلتها أشبه بالعقائد
الثابتة في إقرارها بالسلطان على كل القيم والمقدرات الاخلاقية والاجتماعية .
وكان ذلك جرياً مع الاتجاه المادي الخالص الذي يحاول أن ينكر كل ما
سوى الحس والمادة من قيم .

ومن الحق ان أي تطور او حركة في الكون او المجتمع لا يمكن أن

تنطلق من فراغ ، او تجري الى غير غاية ، ولا بدّ لكل متحرك من إطار او فلك معلوم ، وأن هناك استحالة عقلية في أن تجري حركة التطور عشوائياً من غير نظام ثابت ، او قانون حاكم .

وهنا ينكشف تجاوز الفلسفة المادية لمنهج العلم حيث تسيطر القوى التي تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق غايات بعيدة المدى ، ثم تصيب هذه النظريات بالتمويه وتغلف الأهواء ببريق كاذب ، له طابع العلم ومظهره .

والمفهوم العلمي الصحيح هو أن هناك عناصر ثابتة ، وعناصر متغيرة ، يجري عليها التطور ، وأن تناسقاً يجري بين عناصر الثبات وعناصر التطور . وهذا المفهوم العلمي نفسه يطابق مفهوم الاسلام ، فالاسلام يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع .

ويستمد الفكر الاسلامي مفهومه في التطور والثبات من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعاً ، ومن هنا فلا سبيل الى القول بالتطور المطلق ، وإنكار عنصر الثبات ، ولا بدّ من الارتباط بين القاعدة والحركة ، ومن المستحيل عقلاً ، ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن ينفصل التطور عن قاعدته ، وأن يجري في إطلاق ، والحياة تتحرك وتتغير في كل جزئياتها ، ولكنها لا تخرج عن قواعدها الثابتة ، والفكر بعامة يتطور ، ولكنه يظل ثابت الأصول والمقومات ، والقاعدة العلمية الأصيلة هي : « الحركة حول محور ثابت » . وفي الحياة قيم ثابتة لا سبيل الى تطويرها فيما يتعلق بوحداية الله ، وحقيقة الانسان ، وأصول الدين ، ووحدة الجنس البشري ، وحدود الله ، والبعث والجزاء . فلا تستطيع نظرية التطور بالغة ما بلغت أن تتحدث عن تطور في هذه القيم منذ قامت الارض ، وأنزلت الأديان ، وسعى الانسان في الارض .

ولا ريب أن ثبات هذه القيم هو الذي يفسح المجال للحركة والتطور في مختلف المجالات ، وتبقى هذه الرواسي قائمة كعلامات أصيلة تهدي الى كل طريق .

وقد جاءت هذه الثوابت بمثابة ضوابط للحركة ، فهي لا تتناقض معها . ولكنها تعين عليها ، فهي ليست قواعد معوقة بقدر ما هي أدوات منظمة .

ذلك أنه لا بدّ لكل مجتمع من إطار يتحرك داخله ، ويرتكز عليه ، ثم تأتي بعد ذلك التفاصيل والجزئيات لتتطور طبقاً للظروف والبيئات والعصور .

وإذا كان هذا كله هو حصيلة المنهج العلمي الاسلامي في مفهوم التطور والثبات ، وهو مطابق للمنهج العلمي العام الجامع بين جناحي المعرفة ، والذي لا يقتصر على مفهوم (المادة والعقل والعلم التجريبي) فحسب ، فلا شك أن محاولة فرض مفهوم للتطور المطلق ، إنما هو هدف من أكبر أهداف الفلسفة المادية التي تحاول أن تسيطر بقوة على الفكر البشري كله ، وتفرغه من مفاهيم الايمان بالله ، والأديان ، والبعث ، والجزاء ، وتدفع به بعيداً الى نهاية خطيرة تجدها واضحة وضوحاً لا مرية فيه ، لكل من راجع (بروتوكولات صهيون) او نصوص التلمود ، او اتصل بالمحاولات التي جرت في الغرب خلال عصر التنوير في سبيل إخراج الفكر الغربي المسيحي الأصل من كل القيم . ودفعه الى مجال المادية المفرقة ، وتشكل هذه المحاولة فلسفة واضحة متكاملة تهدف الى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق والإيمان بالله . ودفع الانسانية كلها الى الدمار بتحطيم قيمها ومعنوياتها .

ولقد كانت نظرية التطور هي المنطلق الخطير للقول بأن كل شيء يتحول ويتغير ، ولا يبقى شيء ثابت ، وإن كل أمر يبدو ضعيفاً ، ثم ينمو ويكون في المراحل الأخيرة أقوى وأعظم منه في مراحله الأولى ، ولا ريب أن في

ذلك زيفاً كثيراً، لأنه يراد بذلك أن يقال ان الحضارة اليوم بعد أن تجاوزت الأديان أصبحت أكثر قوة وأعظم من مراحل الحياة التي عرفت فيها الأديان. ومعنى هذا أيضاً القول بتطور الأديان ، وتطور الشرائع ، وتطور اللغات ، وكل هذا سم زعاف يراد به تدمير كل القيم والمقومات الأساسية ، وإلغاء عنصر الثبات الذي تقوم عليه الحياة والفكر البشري جميعاً .

ولقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو خروجاً به من المجال العلمي التجريبي الصارم الى المجال الفلسفي الذي لا يخضع لأي سند او قاعدة من القواعد الثابتة ، ومن مذهب التطور انطلقت كل المذاهب والدعوات والفلسفات المادية . فقد اعتبره المتشبهون به قاعدة لعلوم جديدة هي : مقارنات الأديان ، وتفسير التاريخ ، وتحليل النفس ، وعلوم الأجناس ، والاقتصاد ، والاجتماع .

ومن هنا أخذت هذه العلوم تخضع للمذهب المادي ، وتحاول أن تشكل ما أطلق عليه المنهج العلمي القائم على المسادة وحدها . والذي يتناقض مع أبسط قواعد وأصول منهج المعرفة الانساني . ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيلاً الى نزع القداسة عن الأديان، والشرائع ، والقيم ، والأخلاق؛ والسخرية منها ، والدعوة الى التحلل والاباحية ، وإنكار مقومات المجتمعات، والمقائد على النحو الذي كشفت عنه نظريات فرويد - ودوكايم - وليفي برييل - وسارتر .

ولقد هوجمت نظرية التطور المطلق في محيط البحث العلمي الأصيل هجوماً علمياً ، ودحضت بمنطق العقل، ومنهج الفطرة جميعاً. ولكن أصوات دعايتها المسرفين في استغلالها علا على كل الأصوات .

وفي البروتوكولات نص صريح في هذا المجال يقول : إن دارون ليس

يهودياً ، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على أوسع نطاق ونستغلها في تحطيم الدين .

ومن أبرز من دحضوا نظرية التطور المطلق الدكتور كرلسي موريسون الذي أجاب بعد بحث مستفيض على السؤال المطروح فقال : إن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير . وإنما الذي يتغير هو الصورة فقط . ذلك أن نزعة الطعام لم تتطور . وإنما الذي تطور هو صورة الطعام . وإن نزعة اتخاذ المساكن لم تتطور . وإنما الذي تغير هو صور البيوت . وإن نزعة اللباس وستر العورة لم تتطور . وإنما الذي تطور هو صورة الناس . وإن نزعة القتال والصراع فطرة بشرية ، وإنما الذي تغير هو صورة القتال .

وقال : إن التطور إنما هو في الصور والهياكل لا في الحقائق ، لأن الحقائق ثابتة لا تتغير . وإن القول بأنه (لا شيء ثابت على الإطلاق) نظرية زائفة .

والمعروف أن الذين حملوا لواء الدعوة إلى التطور المطلق لم يكونوا علماء ، وإنما هم أناس موصومون لهم صلة التبعية بالمحافل الماسونية ، وأن هذه الفكرة أساساً هي من نتاج الأيديولوجية التلمودية الطامحة إلى السيطرة على العالم وقدميره .

وتقول البروتوكولات : لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونييتشه قد رتبناه من قبل . وأن الأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الالهي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكد .

ولقد نقلت العلمانية نظرية التطور بمختلف أخطارها وأبعادها إلى الفكر العربي الإسلامي وجرى كثير وراء بريقها دون تقدير لمفهوم الإسلام الجامع دائماً بين التطور والثبات وهو جمع يقوم على أساس علمي صحيح .

ولقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير ، وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له .

فالتطور يشمل أي تغيير يحدث في أوضاع الجماعة ، سواء في اتجاه تقدمي تصاعدي ، او في اتجاه عكسي تنازلي ، ثم هو فوق ذلك ينبنى على أن دوافع هذا التغيير وعوامله إنما يكون منشؤها ذات الشيء ، ومردها الى ما فيه من طاقات طبيعية .

أما التطوير فهو على عكس ذلك ، يختص أولاً بالتغيير التصاعدي الذي يهدف دائماً الى طلب الكمال والحياة الأفضل ، ويتأثر بدوافع خارجة عن طبيعته .

والقوة الخارجة هي : القيادات الاصلاحية والدعوات التقدمية (١) اهـ .

وفي هذا ما يعني المواءمة بين أصول الفكر الاسلامي ، بما يقوم عليه من تشريعات وقيم . وبين ما يتجدد في المجتمع تحت إلحاح من عوامل التطوير الفردي في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ومن هنا أصبح واضحاً . ان التطور لا يمكن أن يكون قانوناً تقدمياً بمعنى أن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه .

ومن ناحية أخرى فإن الفكر الاسلامي قد واجه أخطاء نظرية التطور التي جعلها أصحابها منطلقاً الى الفكرة العلمانية . والتي ارتبطت أساساً بالنظرية المادية ، وخاصة فيما يتعلق بإنكار الخالق ، والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية .

(١) من بحث للدكتور محمد بيبصار في كتابه العقائد والاخلاق .

والفكر الاسلامي يثبت الخلق لله لا للطبيعة ، ويقرر وقوع البعث في الآخرة، كما يقرر الايمان الكامل بعالم الغيب ، بل إن ما يتصل بنظرية التطور من آراء تتصل بالارتقاء والانتخاب الطبيعي كلها قد دحضها العلماء الذين جاءوا على طريق دارون من بعده ، وانكشف زيف هذه الآراء وانكشف هدف تزييف النظرية وسوقها الى الغاية التي يريد الماديون خروجاً من نطاق العلم التجريبي الذي زيف كل دعاوى الفلاسفة ، وهو هدف واضح محدد ، يرمي الى القضاء على فكرة الدين وما يتصل بها من إيمان بالله وباليوم الآخر .

(٧)

من أخطر ما وصلت الى تقريره فكرة العلمانية انطلاقاً من مبدأ التطور المطلق . القول بنسبية الاخلاق ، والقول بتطور الاخلاق تبعاً لعامل الزمان او عامل المكان ، واختلاف ظروف الحياة ، وهو منطلق يرمي الى التحرر من الضوابط الاخلاقية ، والمثل العليا جملة ، وينسجم هذا الاتجاه في الفلسفة المادية مع القول بأن الحياة نهاية كل شيء . وان حقيقة البعث والجزاء هي في نظرها من الغيبيات التي لا تقع تحت طائلة الحس او مجال التجربة .

والواقع أنه لما كانت إرادة الانسان أساساً هي منطلق المسؤولية الفردية في الحياة . فقد كان لا بدّ لهذه المسؤولية من محاسبة وجزاء . ولم يكن أن توجد الحياة عبثاً . وان رسالة الإقامة في هذا الكون ترتبط مسؤولية وأمانة ورسالة لها قواعدها وأصولها ، ثم هي مقدمة لبعث وحساب وجزاء . وإلى جانب المسؤولية الفردية التي هي مناط التكليف ، هناك الالتزام الخلقي في التفرقة بين الخير والشر ، والتماس الخير ، ومفهوم الالتزام يقتضي أن يكون الانسان قادراً على تجاوز الرذيلة والتماس الفضيلة . وقد دعا القرآن الى الالتزام الخلقي وكشف عن أن النفس الانسانية قادرة على تجاوز الشر . وان إرادة الانسان لكفيلة بردها ، وان في النفس قوة كامنة تهيه التوجيه والإرشاد ،

وتحدد للانسان ما يجب عمله ، وما يجب تحاشيه ، والنفس الانسانية في تقدير القرآن ليست شريرة في أصلها ، والأمر في الالتزام الخلقي متوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله فينا .

فالأخلاق في مفهوم الاسلام ثابتة لأنها مرتبطة بالانسان نفسه الذي تشكلت قواه على النحو الذي يجعله قادراً على تبين طريقه في أي عصر وفي أي بيئة .

وقوام الاخلاق في الاسلام : الحرية والاختيار ، فلا اخلاق بغير حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار . والإرادة حركة داخلية نفسية صرفة ، ولذلك يقرر الاسلام أن المكروه إذا فعل ما يكره عليه ، كان له عذره ، ومن حرية الاختيار : أن يكون العمل الخلقي متصفاً بالطواعية والانبعاث من أعماق النفس .

ويقوم مفهوم الاخلاق في القرآن على أساس الاستطاعة والتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الواقع ، ويجمع بين الاتجاهين ، لا تحديد صارم ، ولا ترك كامل .

وقد رسم الاسلام للأخلاق منهجاً واسعاً مرناً يسير التطبيق في مختلف العصور والبيئات ، وجعل إطار القيم الاخلاقية واسعاً رحباً يحقق الحرية الشخصية ، ويتقبل الجهود الفردية . أما الضوابط التي أقرها كقواعد اخلاقية ، فقد أقام بها حواجز متينة ضدّ الظلم والشر والفوضى . وقد أفاضت هذه الضوابط مع رحابة الإطار فرصة للناس في مختلف العصور للقدرة على الحركة والتشكل ، واختيار الصور والأوضاع التي توفق بين القيم القرآنية الأساسية للأخلاق ، وبين التجارب والاحداث التي يقدمها تطور المجتمع ، بما يحقق التقدم والحركة في جو من الحرية الفكرية مع التعبير عنها بما يلائم

العصر . وفي حدود هذه المرونة جعل الاسلام من القيم الاخلاقية قيماً ثابتة في كل عصر وبيئة ، وربطها بالانسان نفسه. أما محاولة القول بنسبية الاخلاق في مفهوم العلمانية والفلسفة المادية ، فإنه مرتبط بإنكار البعث يستهدف القضاء على فكرة الإلزام التي هي أساس تطبيق الاخلاق ، ذلك انه إذا انعدم الإلزام ، انعدمت المسؤولية ، وفقدان المسؤولية يؤدي الى ضياع الحق نفسه ، واستحالة إقامة أسس العدالة .

الفصل الثالث
العلمانية والدين

إن أخطر ما تعارضه العلمانية : هو الدين ، وإن ما وصلت إليه من إقرار
نظرة علمية فلسفية تختلف عن منهج العلوم التجريبية ، ويتميز بالتححرر من
العقائد الغيبية ، والعواطف تحت إسم العلمانية ، إنما هو في تقدير أصحابه
بديل عن الدين ، وإن هذا المنهج يستهدف تفسير الحياة والمجتمع : تفسيراً
حسيّاً ، زمانياً ، دنيوياً ، ليحرر البشرية من الأديان التي تنقسم بأشياء ثلاثة
خطيرة :

الغيبيات – والاساطير – الغائية والحياة الآخرة ، وإن هذا المنهج
يستهدف :

أولاً : التحرر من قيود الأديان التي تضعها للمعرفة البشرية ، والتي لا
يمكن تخطيها .

ثانياً : رفض اعتبار الدين أساساً لحياة الجماعات البشرية .

ثم تقدم العلمانية في منهجها الخطير مجموعة فروض :

الفرض الأول : أن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي

تشكل منها وتسوده فلا يحتاج الى أية قوة خارجية يستعين بها في تفسير ما يحدث فيه .

الفرض الثاني : ان الطبيعة والمجتمع في حركة وتغير لا ينقطعان ، والنشاط البشري في تطور دوماً الى الامام لا يعرف الغائية ولا الاستقرار .

الفرض الثالث : هو أن الاديان منها اختلفت فهماً في نظرتها الى الكون والمجتمع والانسان واحدة ، وأنها تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال الى عالم أخروي أفضل . ولذلك فإن السلوك يجب أن يتجه بكليته الى العالم الآخر . هذا في اختصار هو موقف العلمانية من الدين .

والحق ان العلمانية هي النتاج الاخير للمحاولات الخطيرة الدائبة منذ عصر التنوير في اوروبا من أجل هدف خطير تستهدفه الايديولوجية التلمودية وتعمل دائبة له عن طريق الفلسفة المادية ونظرياتها المتعددة التي انتقلت خلال مراحل عديدة . واستهدفت معارضة وجود الله والاديان والرسل ، والكتب السماوية من ناحية ، ومعارضة الشرائع والاخلاق من ناحية أخرى . وإقامة دين جديد يحل محل الدين الحق المنزل بالوحي من عند الله ، هو دين البشرية المتحرر بالإلحاد من الألوهية ، والمستعبد بالعلمانية للربا ، والجنس ، والوثنية ، والإباحة ، والذهب .

ولقد نجحت التجربة في الغرب نجاحاً منقطع النظير ، مما أغرى دعاة العلمانية الى مسابقة الزمن في حمل المسلمين عليها ، غير ناظرين الى مدى الفوارق البعيدة في العقائد والملل والنحل بين الغرب والشرق .

وكان الاسلام هو الصخرة الصماء العاتية التي تعجز العلمانية عن مناطحتها منها بدا لها خلال نصف قرن ، او يزيد ان الاساليب المفروضة من خلال التعليم

والثقافة . والقانون الوضعي ، والمصرف ، والصحافة . والتربية قد استطاعت أن تركز للعلمانية قاعدة سوف تنطلق منها الى استيعاب الفكر الاسلامي ، واحتواء المجتمع الاسلامي ، وتحقيق الغاية الكبرى على النحو الذي توقعه قوماً بعض اتباع العلمانية بعد نكسة ١٩٦٧ حين تعالت الصيحات بالدعوة الى قطع آخر خيط يصل المسلمين بدينهم وفكرهم . كثرمن لتحررهم من الصهيونية الغازية ، أي بمعنى أشد وضوحاً . الدعوة الى الاستسلام الكامل للأيدولوجية التلمودية ثمناً لجلاء اسرائيل بعد أن يصبح العرب والمسلمون تلموديين صهيونيين بالعقيدة والفكر . وتلك غاية العلمانية .

والواقع ان ركائز الدين في عالم العرب والاسلام أعمق مما يتصور دعاة العلمانية ، وان المقارنة بين عالمين في مجال الدين يكشف عن خطأ في التقدير . او تجاوز في الأهواء .

ولو ان العلمانيين كانوا علميين حقاً يصدر عن فهم للتجربة بما تحتويه من مقارنة ومقايضة لكان عليهم أن يقارنوا بين مفهوم الدين من حيث يطلق على عموميته ، وبين مفهوم الاسلام كدين له طابعه المتميز من حيث هو دين ونظام مجتمع .

لقد كان الخطأ الكبير الذي وقعت فيه العلمانية ، وهي تنعى الدين وتشهر به أنها اعتمدت على تفسيرات زائفة ، ولم تعتمد على أصول أصيلة لدين الله الحق ، وانها نظرت من خلال مرحلة محدودة لها ظروفها وطبيعتها . وعجزت أن تنظر نظرة كلية لتحيط بالقضية من مختلف أبعادها . وأن العلمانية حين تصف الدين بأنه مجموعة من الغيبيات والأساطير ، والخرافات ، والأوهام . إنما كانت تصف واقعاً أمامها ، غير أنه لم يكن في الحقيقة كل الدين ، وأنها حين تصف اتباع الدين بأنهم أصحاب عقلية غيبية . فإن ذلك لا يزعج أصحاب بيئة معينة ، او أنهم حين يقول قائلهم : أقيون الشعوب ، او مصدر

الاستبداد ، او خداع الضعفاء وتعليقهم بالجنة في الآخرة . كل هذا وارد في حدود النموذج الذي كان موضع التحدي ورد الفعل .

وإذا ذهب بعض رجال علم النفس او الاجتماع او الاخلاق الى إقرار نظريات تتصل بالكتب او مقاومة الغرائز ، او معارضة طبيعة الانسان في معطياته ورغائبه . فإن ذلك إنما يمثل واقعاً عرفه الغرب باسم الدين ، ولكنه لم يكن هو الدين في مفهومه الحق المنزل من عند الله وإنما كان ذلك كله تفسيراً بشرياً .

ومن الحق أن تردد العلمانية كلمات الاساطير والالوهام والخرافات ، لأن ذلك اتصل بذلك الفكر المعروض باسم الدين ، والذي يعطي حق فهم الاسرار لطائفة من الناس من دون الناس جميعاً . غير ان العلمانية كانت عاجزة عن أن تفهم ان تحدياتها قاصرة على بيئة معينة ، وان ما تواجهه ليس هو «المنهج» الأصل الذي قدمته رسالات الانبياء . بل ربما لم تكن العلمانية عاجزة ، ولكنها كانت مفوضة ، وكانت على أهواء تريد أن يحتاج الدين بالحق او بالباطل ، وأنها استفادت من بعض وقائع في التاريخ من جراء تطبيق تفسيرات فاسدة . ولو أنها كانت علمانية بالمعنى العلمي الحقيقي لوقفت عند حدود الحق . ولا نصفت كلمة الدين ، ولنظرت نظرة واسعة في الدين الخاتم ، وفي الكتاب المهيمن على الكتب ، ولم تشط في البحث ولم تتعسف النظرة ولابت الى شيء من الانصاف بديلاً لهذا التعصب والظلم والإفتئات .

(٢)

ليس الاسلام في الحقيقة كما تصورت العلمانية الأديان، فقد حفظت نصوصه ومصادره ، وفصل بين الأصل فيه ، وبين تفسيرات المفسرين والفقهاء ، وبقي النص الأصيل ثابتاً ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) . ولا ريب أن المراجعة المنصفة له تكشف بوضوح عن اصالته في ارتباطه بالفطرة ، وفي مسيرته للعلم ، وفي إنشائه للمنهج العلمي الأعلى الذي تجرد من الأهواء ، وسلم من الغايات والمطامع ، ولا ريب أن إلقاء نظرة على مصدر الاسلام ، وهو القرآن الموحى به من الله ، يكشف للنفس المتطلعة الى معرفة الحق ، عن الضوء الساطع الذي يقنع القلب والعقل معاً ، وقد هدى للعشرات ، بل للمئات في العصر الحديث ممن التمسوا عنده أصول المعرفة .

ففي مجال الصلة بين الانسان والله ، وبين الانسان والكون ، وبين الانسان والحياة ، وبين الانسان والمجتمع . قدم القرآن نهجاً غاية في السلامة والحكمة خالياً من الاساطير والأوهام والخرافات التي لا يست بعض تفسيرات الأديان . فجمع له بين الإيمان والمعرفة ، والروح والمادة ، والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة . وكشف عن حقيقة الانسان ومهمته في الحياة ، وأجاب عن كل الأسئلة المحيرة التي ما تزال الفلسفات تبحث عنها . أجاب عليها منذ أربعة عشر قرناً بما يقنع ذوي الألباب . لماذا جاء وما هي رسالته ومسؤوليته ،

وكيف يبحث بعد موته ليشهد يوم الجزاء والحساب، ويعيش الحياة الأخرى، والقرآن يهدي الى هذا الفهم في أسلوب يخاطب العقل والقلب ، بالإقناع والبرهان ، وبالموعظة والحكمة ، وبالتجربة والتأريخ ، وذلك منهجه الجامع للمعرفة الذي لا يقتصر على أسلوب واحد منها ، او طريق واحد إليه .

ولقد حرص الاسلام عن طريق منهجه القرآني أن يحذر الإنسان من انشطارية المعرفة ، وانشطارية الحياة ، والتفرقة بين جوانبها المختلفة ، كما قدم له منهجاً كاملاً عن « عالم الغيب » حق يكون على بينة منه ، فلا يحتاج الى البحث عنه ، وليمضي في طريقه الى كشف أبعاد الحياة ، والسماس ذخائرها وكنوزها ، وبناء المجتمع ، وإنشاء الحضارة ، وإقامة أسباب العمران . وقد أقام الاسلام منهجه على قاعدة واحدة كلية هي : التوحيد .

فالإيمان بالله وإقراره بالعبادة، والإقرار له بالخلق والأمر هو دعامة الأمر كله . ومنه تنطلق كل أسباب الحياة .

وقد أكدت الأبحاث والدراسات العلمية ضرورة الدين ، ووجود نزعة التدين في كل بني البشر ، وحاجة النفس الإنسانية إليه ، ولا توجد أمارة واحدة تدل على أن ظاهرة التدين ستزول من الأرض قبل أن يزول الإنسان^(١).

والدين هو الاعتقاد بوجود ذات غيبية علوية لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان ، وهو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة .

ومطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات ، وأن دلائله

(دكتور محمد عبد الله دراز : الدين .

البرهانية ماثلة في الانفس ، وفي الآفاق ، وان بواعث النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات .

وان آيات الألوهية مبثوثة في كل مكان ، وان وسائل الناس الى معرفتها مختلفة . وقد أقام القرآن منهجاً علمياً في المعرفة يعز نظيره في شموله وتكامله . فقد اعتمد على أعمدة متعددة بتعدد معطيات الانسان :

أولاً : المنهج الطبيعي بالحديث عن السماء والارض والحياة والموت .

ثانياً : المنهج الروحي ، بالحديث عن الجسم والروح ، وانفصال الروح بعد الموت .

ثالثاً : المنهج النفسي ، بالإشارة الى قصور الإرادات الانسانية عن بلوغ أهدافها ، وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا ، وتحول الإرادات الانسانية عن أهدافها .

رابعاً : المنهج النفسي ، بالحديث عن النفس في مراحلها المختلفة : النفس الامارة ، النفس اللوامة ، النفس المطمئنة .

خامساً : المنهج الاجتماعي بتقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على النفوس والافراد .

سادساً : المنهج التعليمي ، وهو منهج واضح في آيات القرآن .

(٣)

لا ريب في وجود ظاهرة الدين في البشرية كلها ، يؤيد ذلك ما قاله بلوتارك (في القرن الاول للميلاد) : من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار، وبلا ملوك ، وبلا ثروة ، وبلا آداب ، وبلا مسارح . ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد ، او لا تمارس العبادة .

ويقول ماكس مولر : إن الدين قوة من قوى النفس ، وخاصة من خواصها ، وان البشر بتأثير هذه القوة ، وبأسماء ورموز مختلفة متعددة ، تأهب لإدراك الاسرار الغامضة ، وان فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فطر عليها الانسان منذ نشأته الاولى .

ويعتبر علماء الاجتماع ، الدين من أهم القواعد التي قام عليها بناء المجتمع البشري ، ولم يذكر التاريخ قوماً او جماعة عاشت دون أن تؤمن بدين .

ويقول سنوندر بلوم في كتابه (مختصر تاريخ الاديان) : لم يغير في أي مكان على قبيلة ، او شعب ليس له طقوس مقدسة ، او أنه لم يؤمن بكائنات عليا ، وان الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين ، إنما استندوا في دعواهم الى ملاحظات غير صحيحة .

ويقول أرنست رينان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نجبه وكل شيء نعدده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينتهي « الدين » أو يتلاشى ، بل سيبقى الى الابد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضائق .

ويرى فريد وجدي ان الدين ليس فلسفة ، ولا فقهاً ، ولا علماً ، وإنما هو ميل روحاني في النفس للخلاص من أسر المادة الارضية والاتجاه الى الانسانية ، وان هذا الميل فطرة مما فطر الله عليها كل نفس إنسانية ، وما يزال يزيدها العلم قوة وظهوراً ، ولا يعقل أن دوراً من أدوار الاجتماع ، ولا حالاً من أحوال التقدم الصناعي يلاشي هذه الفكرة . ويرى علماء الاجتماع المحدثين ، عدم جواز نجاح مؤسسة تستند الى الكذب ، والزييف واستمرارها ودوامها وقتاً طويلاً بحيث تظل في حيوية عظمى ، وعندهم ان الاديان ظاهرة طبيعية ، ولولا ذلك لاعتضت سبيلها مقاومة قاهرة يتعذر التغلب عليها ، وان في العقل ميلاً الى التوحيد ، فهو يطلب دائماً الوحدة وراء التنوع .

والحقيقة الاولى في الدين هي التوحيد ، وليس الوثنية ، فقد بدأت البشرية موحدة ، ثم اضطربت بها السبل فانحرف الانسان عن عبادة الله الحق ، وعن الاصنام ، وقد تأكدت هذه الحقيقة في القرآن فضلاً عما كشفت عنه الحفريات والابحاث الانثروبولوجية . وليس صحيحاً ما يحاول بعض دعاة مقارنة الاديان من ان هناك تدرج او تطور من السحر والكهنة ، والتنجيم ، والتائم ، والطقوس الى عقيدة التوحيد .

ذلك أن الانسان بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام اول من حمل رسالة التوحيد أما السحر والكهانة والتنجيم والتائم ، فتملك إنما تمثل تحولات الانسان من التوحيد الى الوثنية ، ومن الفطرة الى أهواء النفس ، وتمثل صورة الدين

الحق في الاسلام الذي نجا من التحريف في النص ، او التزييف في التفسير ، وأبرز معالمه هي تطابقه مع الفطرة الإنسانية ، وقدرته على العطاء لكل العصور والازمنة والبيئات واكتمال هدفه في منهج شامل عبادة وشريعة وأخلاقاً .

ويقوم مفهوم الدين الحق كما نراه في الاسلام على أساس تحرير الانسان من العبودية الإجتماعية والتبعية الفكرية. ومن الرهبانية والزهادة ، في نفس الوقت الذي يحرره فيه من الترف والأباحية . وقد لمح هذه الظاهرة كثير من الباحثين . يقول بارتلمي سانهلير : « إن الاسلام قد أحدث رقياً عظيماً » . فقد أطلق العقل الانساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة . فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، وان الاسلام بتحريمه الصور في المساجد وكل ما يمثل الله ، قد خلص الفكر الانساني من وثنية القرون السابقة . واضطر العالم الى أن يرجع الى نفسه وأن يبحث عن الله خالقه .

نعم : لقد فتح التوحيد للبشرية آفاقاً من المعرفة حققت للقلب والعقل الانساني التماس الحقيقة التي ظلت مضطربة بين أهواء المفسرين ، ومطامع الظالمين . فانكشفت عن النفس الانسانية غياهب الأوهام والكهانة والسحر ، والعرافة ، والوثنية التي قيدتها بها مفاهيم العقلية الغيبية . وبالاسلام أزيح ذلك الخطر الذي فتح أبواب الإلحاد ، والشك ، والارتياب ، والزيغ الذي سقطت فيه العقول والنفوس . وبرز طابع الفطرة الانسانية القادرة على عطاء الإيمان واليقين ، وحل بالبشرية عصر جديد .

فلا ريب ان كل ما يتصل بالعقلية الغيبية ، والأوهام والاساطير ، والكهانة والسحر . إنما هو متصل بعصور ، جاء الاسلام ليضع نهايتها في تاريخ البشرية ، وليفتح الباب واسعاً من جديد أمام البشرية لتخلص من أوهامها وآثامها .

يقول العلامة مسمر : إن التوحيد الذي هو أساس الدين الاسلامي . كان السبب الاول في نجاح دعوة محمد ، وان إعلان محمد هذا التوحيد في عصر حلت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت . كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقول حتى أنه ما كاد يقوه بالدعوة الى توحيد الله حتى استنار العالم كله بدعوته . وفضلاً عن ذلك فإن الإيمان بالله جنب المعارف الانسانية من الانقسام الى دينية وعقلية . ولقد كان مفهوم التوحيد هو أساس منهج المعرفة الاسلامي ، وهو الفصيل الواضح الدقيق بينه وبين عشرات من النحل والمذاهب والعقائد . وعلى أساسه رفض الاسلام التعدد والوثنية والأثينية . ورفض به المسلمون رأي أرسطو في الله ، ورأي الفلسفات الهلينية في تجاوزها ، والفلسفات الغنوصية في قولها بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

والاسلام هو الذي أعلن رب العالمين للبشرية كلها ، والذي تشمل رعايته التي لا حد لها ، ورحمته الواسعة جميع الأمم والاقوام .

وليس الإله الذي يفضل شعبه على الشعوب الاخرى ، ولا حيث يختلط الألوهية والبشرية كما رفض الاسلام مفهوم الفلسفات اليونانية ، ورفع الابطال الى مصاف الآلهة ، وانصاف الآلهة ، وحرر العلاقة بين الله والانسان على النحو الذي يحقق مكانة الانسان عبداً لله ، ومكانة الله سيداً للعالمين مع الايمان برحمة الله وبره وعطائه ، ألوهية ينفرد بها الله سبحانه ، وعبودية يشترك فيها كل حي وكل شيء .

واللوهية الله ليست موضع ريب او شك . وليست في حاجة الى دليل ، فكل مصنوع له صانع . وان الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع ، هو قديم لم يزل ، ليس له صورة ولا أعضاء ، ولا يحويه مكان بعينه ، ولا يجري عليه زمان . وقد أثبت العلم الحديث مفهوم الله سبحانه حيث يقول : (واين أولت) أحد العلماء المتخصصين في الكيمياء .

إن الله كما نعرفه ليس مادة او طاقة ، كما أنه ليس محدوداً ، حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة . والعقل المحدود . بل على نقيض ذلك ، نجد التصديق بوجود الله ، يقوم على أساس الايمان ، وهو إيمان يشهد تأييداً علمياً من الدلائل غير المباشرة التي تشير الى وجود (سبب أول) او إلى دافع مستمر منذ القدم . إن الايمان بالله يعد لازماً لا كتمال وجود الانسان ، وتنام فلسفته في الحياة ، ولا شك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء ، يعطينا تفسيراً بسيطاً سليماً واضحاً في النشأة والابداع ، والفرض والحكمة ، ويساعدنا على تفسير كل ما يحدث من الظواهر . أما النظريات التي ترمي الى تفسير الكون تفسيراً آلياً . فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى الى محض المصادفة ، فالمصادفة فكرة يستعاض بها عن وجود الله ، بقصد إكمال الصورة والبعد عن التشويه ، ولكن فكرة وجود الله أقرب الى المنطق والعقل من فكرة الصدفة . ولا شك ان ذلك النظام البديع الذي يسود الكون . يسدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء . وعلى ذلك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم تسليماً منطقياً بوجود عقل مبدع ، لا حدود لعلمه ، ولا لقدرته موجود في كل مكان يحيط مخلوقاته برعايته سواء في ذلك الكون المتسع ، او كل ذرة ، او جزئية من جزئيات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة . اهـ .

ويقول (كرسى مورلسون) : ان وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة وأن وجود الانسان على ظهر الارض والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون .

(٤)

ما هي صلة الدين بالاساطير : إن النظرية العلمانية تكثر من توريد عبارة الاساطير ، فما هي علاقة الأديان بالاساطير . لقد جاءت الأديان لتخبر الناس من الأساطير التي يصنعها الفكر البشري حين يتحول عن عقيدة التوحيد ، ويندفع وراء أهوائه ليرسم لنفسه طريقاً مغايراً ، رغبة في الانفلات من الضوابط والحدود التي رسمها الدين للانسان رحمة به وحماية له من أمرين : من الضياع والقلق والتمزق النفسي من ناحية انفصاله عن العقيدة . ومن التحلل والفساد والتدمير الخلقى والجسماني من ناحية انفصاله عن الشريعة والأخلاق . ولكن الانسان دائب على الانفصال عن ضوابط الأديان وحدودها ، سواء بالإلحاد الصريح ، او بالتأويل الباطل . ومن وراء الانسان قوى تعمل لدفع البشرية عن طريق الحق ، وهي قوى ضخمة تملك إمكانيات متعددة ، ولها مطامع وأهداف في إزالة الأديان والأخلاق . وبناء امبراطورية الربا الوثنية . وقد اتخذت في العصر الحديث منطلقها الى العمل عن طريق الفلسفات المادية ، وفي ستار له بريق تحت اسم العلم والعقل ، واستطاعت أن تحول الأهواء والأوهام والاساطير والسحر والوثنيات كلها الى علوم لها منهج العلم وصورته . وقد استطاعت أن تعيد احياء الفكر البشري القديم كله في غنوصية ووثنية ،

وتشكيله في صورة جديدة ليكون سلاحاً من أسلحة الايديولوجية التلمودية. وهي في أول دعواها تتهم الدين بالغيبية وبالاسطورية ، وبأنه أوهام وخرافات . ومن الحق المقرر أن الدين الحق المنزل عند الله بالوحي الى النبي ، قد جاء دائماً ليحرر البشرية من الاساطير المتراكمة .

وليست الاساطير إلا تفسير الحياة تفسيراً بشرياً بعيداً عن التفسير الانساني الذي جاء به الدين الحق ، ولقد كان للفرس واليونان والهنود والفراعنة والجاهلية العربية أساطير مشتركة الاصل وثنية الطابع ، تدور كلها حول التعدد والشرك والسحر والكهانة ، وعبادة الابطال ، وعبادة الاجساد ، وعبادة الاصنام ، والشمس والقمر ، والكواكب ، وعبادة النار .

وقد قامت في ظل هذه الاساطير الوثنية مفاهيم ضالة مضللة تدفع الانسان الى التماس الاهواء . وكان لليهود دور كبير في احياء مفاهيم السحر ، والاتصال بالجن ، وما يتصل بذلك من العرافة والكهانة (وهما التنبؤ بالمستقبل والكشف عن الماضي) فلما جاء الاسلام زيف كل هذه المفاهيم ، وقضى عليها ، وأحل محلها الايمان بالله الواحد . ودعا المسلمين الى مجانية السحر والعرافة ، والاعتماد على الله وحده ، والثقة به ، وأنكر الاصنام والاوئان والتماثيل والانصاب جميعاً ، ما كان منها مصنوعاً على أشكال او صور المخلوقات الحية ، وحارب الطقوس الزائفة ، وألغى الوساطة بين الخلق والله ، وأنكر مهمة الوسطاء والشفعاء من كهنة وغيرهم ، كما أنكر الاستقسام بالازلام ، والتطير والطيرة والرقى ، وتقريب القرابين للآلهة ، او للنيل وتقتيل الاولاد ، كما ألغى عادات وأد البنات خشية العار ، او الاولاد خشية الفقر ، وأنكر التطير ، ووضع للمسلمين مناهج لمواجهة الامور كلها ، كالاستخارة والصلاة والدعاء لمواجهة

فزع الاحلام ، وقلق الاحداث ، ورد الامور كلها الى الله ، فليس هناك قوى غيبية تهيم في الارض ، وتخرج من البحار في الليل ، وتقتل الناس ، ولكن هناك قوة واحدة ، هي الله وحده الذي يلتمس ويقصد وإن كل ما يقصد من دونه هباء .

ولقد كان اليونان والفراعنة والفرس والهنود ، يقيمون الاعياد والمهرجانات لآلهة الخمر والحصاد وغيرها ، ويقدمون لها القرابين ، فأعلن الاسلام بطلان ذلك كله (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله) وأعلن أن الاستقسام بالازلام لمعرفة الغيب رجس من عمل الشيطان ، ونهى عن التطير والتشاؤم وعده من الشرك كما عُدّ السحر من الشرك . وبذلك حرر الاسلام البشرية كلها من أوهام خطيرة عاشت زمنًا طويلاً ، وكأنها قيم وحقائق ومقررات كما كشف عن الصلة بين اليهود والسحر ، وبين السحرة والشياطين ، وكيف أنهم يعلمونهم ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، ولكنه حسم ذلك حسمًا كاملاً حين قال : (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) . ولقد حدد الاسلام الموقف حاسماً بين الألوهية والبطولة الانسانية . وكيف ان البطولة مهما كانت في أعلى صورها المتمثلة في النبوة لا ترقى الى الألوهية . والبطولة في الاسلام ليست بطولة الاحجار ، ولكنها بطولة العمل والكلمة ، ويقطع الاسلام قطعاً ببشرية الرسول وبانعدام عبادة الابطال ، او ترقيتهم الى آلهة ، وانصاف آلهة .

وجاء القرآن فكشف عن جوانب من التاريخ البشري ، وحرر البشرية من الاساطير التي كانت تدور حولها . ثم جاء المسلمون فحرروا سيرة الرسول من الأسطورية ، ووضعوا أول منهج في تاريخ الفكر البشري للتحقيق العلمي ولتحرير النصوص . ولقد استشرت الأسطورة في الأمم ، وقصر العرب في

جاهليتهم حق وصفوا بضيق الخيال ، ومرجع هذا الى أن الوثنية العربية كانت وثنية تقليدية ، وأنها قامت على انحراف عن دين ابرهم دين التوحيد .

وإذا كان هذا صحيحاً ، وهو صحيح فهل يمكن أن يوصف الاسلام بأنه دين الأساطير والخرافات . وهو الذي حرر البشرية منها .

هل العقلية الاسلامية عقلية غيبية : تحاول العلمانية أن تصف العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية ، وربما وصفت العقلية العربية في العصر الحديث بأنها غيبية . ومرد ذلك في الاتهام يؤمن بالغيب ، ويقرر وجود عالم الغيب . ولكن هل هذا التكامل في النظرة الجامعة بين التجريب والغيب ، او عالم المحسوس ، وعالم الغيب ، هل هذا التكامل يمكن أن يصم العقلية الاسلامية بأنها غيبية ، او لا يحق لمفهوم في المعرفة بتجاوز الواقع والحس الى الآفاق البعيدة في اتساع النظرة أن يوصف بأنه فكر قائم على التكامل والشمول .

هل إذا قصرت نظرة فكر عند المادة والعقل المحسوس تحت امم وجهة النظر العلمية يكون ذلك أقدر على استكناه الحياة والوجود من فكر تتسع آفاقه ، فتشمل الى جانب المادة ، والعقل المحسوس أفقاً آخر هو جانب الروح والقلب ، وعوالم البصيرة والايان والفطرة ، وهل إذا اتسع الأفق على هذا النحو . فشمل كل مناهج المعرفة التي تعطي الانسان اكبر العطاء ، أطلق على هذا الفكر صفة الفكر الغيبي ، ووصفت العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية .

لقد حرر الاسلام البشرية من العقلية الغيبية التي تقوم على الوهم ومتابعة الآباء دون برهان ، والتقليد الأعمى ، والايان بالخرافات والأساطير والأوهام

ومما أقامه الفكر البشري من وثنية وإلحاد ومادية فكيف توصف العقلية
الاسلامية بأنها عقلية غيبية .

لربما كان وصف العقلية العربية في العصر الحاضر بأنها عقلية غيبية من
حيث أنها خرجت عن مفاهيم الاسلام ، وانحرفت تحت تأثير النفوذ الأجنبي ،
والغزو الثقافي عن المفاهيم الأصلية التي قدمها لها الاسلام بعد أن خضعت
لتعاليم الماسونية ، ومناهج الإرساليات ، والقانون الوضعي ، والوثنيات التي
تسوقها سوقاً الى عالم الأساطير .

هذا هو مدلول الغيبية : مدلول الانحراف عن النهج العلمي الأصيل ،
وعن الدليل والبرهان ، وعن سلامة النفس في إصدارها للأمور وحكمها في
القضايا . ولقد جاء الاسلام بأكمل منهج لإقرار الحق :

« يا أيها الذين آمنوا لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو
أقرب للتقوى » . « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو
على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا
تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون
خبيراً » . أي منهج لإقرار الحق والانصاف من النفس كمنهج الاسلام الذي
دعا الى البرهان « قل هاتوا برهانكم » وأمر بالقسط ، ونهى عن الهوى ،
ودعا الى التجربة — هذا المنهج لا يوصف بأنه منهج غيبي ، لأنه أكثر اكتمالاً
من وجهة النظر العلمية التي تقصر النظرة على المادة والمحسوس والعقل ،
وبذلك تفوتها حقائق كثيرة .

(٦)

أما عالم الغيب نفسه ، فذلك جزء من منهج المعرفة الاسلامي ، وحقيقة ساطعة قبل أن تقول بها العلوم الحديثة ، وقبل أن يصل إليها التجريبيون بعد تحطيم الذرة . والمسلم يؤمن بأن هناك عالين متكاملين أو هما عالم واحد على مرحلتين . عالم الشهادة المكشوف الواضح الذي نراه بالعين وندرسه بالعقل ، والتجربة من خلال الأنايتق والمعايير العلمية ، وهو ما يسمونه المحسوس .

وعالم الغيب الذي لا تصل إليه أبصارنا وأسماعنا القاصرة المحدودة ، والذي عرفناه عن طريق الوحي والايان وهدتنا إليه أديان السماء ، والذي يتسق مع العقل كل الاقسام . ويكون نتيجة طبيعية لرحلة الحياة كلها فلو أنه تخلف لأصبحت هذه الحياة مسرحية باطلة .

ولقد تشك الفلسفة المادية بعالم الغيب ، وما يتصل به من ألوهية ونبوة ووحى وأديان ، وكتب وبعث ونشور وجزاء ، فإن لها ذلك ، وهي لحظة قديمة مستمرة تجاوز الأديان ، ثم تتخطاها الى الحقائق والوقائع ، ولكنها لا تنفك تنفث سمومها .

ولقد جرى العلم التجريبي ثمة وراء مفهوم المادية ، ثم استطاع أن يتحرر

منها بعد أن تحطمت الذرة. وتبين أن كل مفاهيم الذرة يتصل بالضوء والنور وهما من عالم الغيب . فأب العلم أو أو شك إلى اليقين . وبقيت الفلسفة المادية تثير الشكوك والشبهات من أجل إقرار مفاهيم هدامة ترمي بها إلى تدمير الأديان والأخلاق ، كمقدمة لتدمير المجتمعات والحضارة . وإذا كان الإنسان (روحاً ومادة) فلا بد أن يكون جامعاً للغيب والشهادة في تركيبه وكيانه ولما كان الإنسان هو سيد المخلوقات والمستخلف في الأرض فقد أوتي العقل ، وعلى أساسه تقوم المسؤولية الفردية والتبعة الأخلاقية .

ومن هنا يتبين أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة من رحلة كبرى ، وأن الموت ليس هو نهاية الحياة . ولما كان عمل الإنسان في هذه الحياة من أجل عمرانها مرتبط بمنهج الله وطريقه . وفي حدوده ، وضوابطه ، فإن هذه الأمانة تحتاج إلى محاسبة وجزاء .

وهنا تجيء التبعة والمسؤولية ومن ورائها البعث والجزاء . هذا الغيب لا يختلف فيه العلم ، وإنما تعارضه الفلسفة المادية التي تقصر التجربة كلها على أساس الحياة وحدها .

وليس معنى ترابط الدنيا والآخرة ، هو أن تكون الحياة موجهة إلى العمل للآخرة ، بل إن العمل في الدنيا ضرورة . وقد دعا الإسلام الإنسان أن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يأخذ زينته ويستمتع بكل ما في الدنيا من طيبات . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة » .

ولقد جاء الإنسان إلى الدنيا وله رسالة هي التعمير والبناء والبحث عن كنوز الدنيا واستخراجها فكيف يكون عمله في الدنيا بمفهوم الزهادة فيها واعتزالها وإنكارها . إن مفهوم الإسلام هو العمل ومتاع الحياة على أن

تكون الوجهة فيها محررة بالحق خالصة لله ، طيبة بالبذل والانفاق والعمل الصالح، وأن يتجافى مطامعها بالباطل والظلم والإفساد في الأرض، والطغيان، واستعمال قواها للإهلاك والتدمير ، وإذلال الناس ، وإقامة الفوارق ، والاستعلاء بغير الحق ، وإبادة الضعفاء ، والتسلط على الأمم ، واصطناع فوارق اللون والجنس والدين أداة للسيطرة – تلك هي وجهة الاسلام في إخلاص الدنيا للآخرة . أما من حيث بناء الحياة وعمرانها ، فتلك رسالة يقررها الرسول في عبارة وجيزة : [إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها] . وهذا هو منطق الاسلام في فهم للعلاقة بين الدنيا والآخرة .

الفصل الرابع
العِلمانية والإِنسان

إن أكبر تجاوزات العلمانية قولها : إن الانسانية قد أصبحت راشدة ، وهي ليست في حاجة الى وصاية الدين. وقد رتبنا هذا الرأي على القول بأن الانسانية بدأت ضالة واهمة ، ثم تقدمت حتى أصبحت في درجة الرشد الذي يحق لها معه أن تتحرر من وصاية الدين ، ونريد أن نعرف ما هو العطاء الجديد الذي قدمته لها الحضارة او العلم الحديث بحيث يهديها الى طريق الحق فتكون راشدة بذاتها ، ما هو البديل الذي تستحق معه البشرية أن تتحرر من الدين بعد أن أغناها عنه وقدم لها طمأنينة النفس وسعادة الحياة .

هل هو العلم الذي أصبح الانسان معه مسخراً وتابعاً للآلة ، ومطحوناً في هذه الميكانيكية الضخمة التي تحتاج عواطفه ومشاعره وكيانه ، أم هي الفلسفة التي هدت الانسان الى أن الغريزة هي مصدر كيانه ، وأن الجنس واللذة هي غاية حياته ، وأن الجريمة هي الفطرة ، وأن الأسرة نظام خادع ، وأن الدين أفيون الشعوب ، وأن الحياة مادة ، وأن الإله قد مات ، او أن الانسان هو الذي خلق آلهته ، او أن الموت نهاية الحياة . فعلى الانسان أن يركض فيها ركضاً لتحقيق لذاته وشهوته قبل أن يدركه الموت او أن الاخلاق نسبية ، وأن التطور مطلق « وإن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

ذلك هو ما هدت إليه الفلسفة المادية ، وجعلته ديناً بديلاً للدين ، ولعله هو الذي أصبحت به الانسانية راشدة ، وليست في حاجة الى وصاية الدين ، تلك هي البدائل التي قدمتها الايديولوجية التلمودية على قاعدة تقديم البديل قبل إلغاء الأصل .

ولكن متى كانت هذه الفلسفة البديلة ، او الدين التلمودي جديداً على البشرية ، لقد كان ذلك قائماً منذ قرون وقرون عرفتة الوثنية اليونانية والغنوصية الهندية والمجوسية الفارسية ، وعرفتة كل المذاهب المضلة التي حاولت أن تهدم الدين الحق ، وتدفع البشرية الى تيه مظلم لا ضياء فيه .

إن البشرية دائماً في حاجة الى هدى من خارجها ، وتوجيه من صانعها ، ولن تستطيع أبداً أن تلتمس طريقها إلا في ضوء منهج المعرفة الذي هداها إليه الله خالقها وفاطرها ، وأنها كلما تجاوزت هذا المنهج ضلت وتخبطت في دياجير الظلمات حتى تعود إليه .

إن أزمة الانسان الحديث هي أنه فقد نصف الحقيقة ، ووقف عند شطرها المادي الجاف ، فأحست نفسه بالقلق والتمزق ، أنه اكتفى بالعلم والعقل والمادة ، وهي جناح واحد لطائر مهبض في الجناح الآخر .

يقول احد علماء العصر الحديث : إن الانسان الحديث يعيش أزمة روحية وحضارية . فالحياة الإلهية قد ضيقت نطاق عالم المعاني الذي يعيش فيه ، وأفقدته الاحساس بتلك الحيوية التي تحفل بها الطبيعة ، ذلك لأن مجمع المدنية الصناعية قد فصل الانسان عن الطبيعة فصلاً ، كاد أن يكون تاماً . فلم تعد تجريته تتضمن الاحساس بالقوى الطبيعية المباشرة . وبمسا قنطوي عليه من معان ثري حياته الروحية ، إنه يعيش في عالم صنعه هو بكل تفاصيله ،

وبالتالي فقد كل مساله دلالة معنوية ، لأن ما يصنعه الانسان ينكشف كله له ولا يعود فيه سرّ .

إن حياة الانسان المعاصر قد قصرت على جانب المحسوسات والماديات ، فإذا في أعماقه منطقة فراغ موحش يحتاج الى عطاء لا تقدمه هذه الحضارة المادية ، ولا ينقطع نداءؤه من الداخل ، ولا سبيل الى حلّ هذه الأزمة إلا عن طريق الدين ، الدين الحق الذي يعطي الاجابات الصحيحة عن المسائل الحائرة: عن الموت، عن البعث ، عن مهمة الانسان . لماذا جاء وأين يذهب. لقد جرب تفسيرات غير الاديان، فلم تقدم له شيئاً يشفي الغليل، ثم تجرع الفلسفة كأساً بعد كأس ، فلم تصل به الى شيء إلا أن زاده حرجاً وشقوة ، فلم يعد له إلا طريق واحد يلتمس فيه الحقيقة ، هو الدين .

إن حياة الانسان على هذا النحو الذي يعيشه الانسان الحديث ، توقف بالقسر والاعنات والجبرية ، عند جانب واحد ، حين تؤكد له الفلسفات أن الموت نهائي .

إن حياة الانسان خالدة ولها بقية بعد الموت ، ولا انفصال بين الحياتين، فهي تجربة متكاملة ، هذا الذي تعيشه في الدنيا جزء منها ، وله بقية محتومة ولا قيمة للحياة اذا كان الموت نهاية الانسان فيها ، فأبي هدف ، وأي رسالة لهذا النظام الضخم الدقيق كله .

هل يمكن أن يكون مشروع هذه الحياة الدنيا بكل هذه الصورة البارعة الدقيقة عملاً ينتهي بموت الانسان ، الحق أنه لا قيمة للحياة في نظر الفطرة والعقل جميعاً ، اذا لم تكن رسالة لها التزاماتها ومسؤوليتها ، ثم لها جزاؤها من بعده. ليست الحياة عبثاً، وكفاح الانسان ان يكون فيها مضيعة. إن حياة

الانسان القصيرة في الدنيا « المؤقتة » ليست إلا امتحاناً لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانته وإنسانيته .

هذا المفهوم الأصيل الذي جاء به الدين الحق ، هو الذي يحمي الانسان من فكرة العدم والغربة المدمرة لوجوده وإرادته .

إن أخطر ما واجهت الفلسفة المادية الانسان به ، انها وضعت في قائمة الأشياء ، ثم أخذت تعمل فيه مبضع الحيوان . وقد كانت الفلسفة المثالية غالبية حين جعلت الانسان في مقام السيادة للكون ، ثم جاءت الفلسفة المادية أشد غلواً حين وضعت الانسان في قائمة الحيوان والأحجار ، وحاولت أن تحكم عليه بمقاييس العلم المادي من خلال التجربة والمحسوس . فليس الانسان سيداً للكون إلا تحت حكم الله ، فهو مستخلف في الارض بعقد الأمانة ، وميثاق التقوى ، ولكنه ليس السيد المطلق كما حاول الفكر الغربي أن يصوره ، لقد كانت عقيدة الأوروبي أن لا شيء في الكون إلا الانسان ، وأن الانسان قد حل محل الإله كما قال نيتشه .

ومنذ قال ذلك أتباع الأيديولوجية التلمودية ، فقدت أوروبا إيمانها بالله ، وتصدعت العقيدة الدينية في النفوس . ولم تقف الايديولوجية عند هذا الرأي الآثم ، ثم تجاوزته بفلسفة فرويد الى أنه حيوان يعتمد على غرائزه ، ويصدر عن شهواته ، وأن الجنس هو دافعه الأول والأخير ، إن الفلسفة المادية هي التي قتلت الانسان وأخرجته عن إهابه ووضعها الحقيقي فجعلته إلهاً ، ثم جعلته مادة تنطبق عليه مقاييس الحشرات . ومن هنا نشأت تلك الأزمة الصاعقة . لقد كرم الدين الحق الانسان ، ووضع موطناً كريماً مستخلفاً في الأرض ، وكشف له عن النجدين طريق الحق ، وطريق الباطل ، ودفعه دفماً الى أن يحمل أمانته بقوة ، ويؤدي دوره في بناء الحياة ،

واستكشاف أسرارها ، واستخراج كنوزها ، عاملاً ناهضاً بالتبعة ، مخلصاً وجهه الله ، ليس زاهداً ولا مترفاً ، ولكن أصحاب الأهواء لم يدعوه ، بل زينوا له الإلحاد والإباحة والترف ، فأخرجوه عن إهابه ، فأنكر جانباً هاماً من كيانه ووجوده ، واندفع مع الجانب الآخر فأصابته الأزمة القاتلة ، حياة غاية في الترف والرخاء ، ولكنها تملأ القلب بلواعج الشكوك والتمزق والغربة « ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » .

إن نظرة الاسلام الى الانسان غير نظرة العلمانية ، إنها نظرة إنسانية شاملة قائمة على ما يقوم به الانسان نفسه (روحه وجسمه وعقله) « والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . وبذلك أعطاه المنهج المتكامل الجامع ، منهج للعلم (إدراك العقل عن طريق الحواس ، السمع والبصر) ومنهج للمعرفة (عن طريق الايمان بالقلب) .

لقد ربط القرآن المعرفة بين العقل والقلب برباط وثيق بحيث لا يمكن أن يفصل ، ولم يركز على العقل وحده كما فعلت الفلسفة اليونانية ، ولم يركز على القلب وحده كما فعلته الفلسفة الغنوصية ، بل جعل العقل والقلب سواء .

وكان هذا التكامل في مفهوم المعرفة مقدمة للتكامل في كل جوانب الحياة ، وفي التكامل والترابط بين الحياة والموت .

أما العلمانية فقد شطرت المعرفة شطرين ، وأخذت بالعقل وحده ، فقضت على كيان الانسان النفسي والوجداني والروحي .

ان مفهوم القيم في الاسلام هو ان الانسان يعيش عالين متصلين لا انفصال

بينهما : عالم خارجي ، وعالم داخلي ، عالم مع النفس وعالم مع الغير ، عالم الشهادة وعالم الغيب .

ان أقسى ما يواجه البشرية اليوم ، ويصيبها بالأزمة القاسية ، هو خروجها على الفطرة ، واندفاعها مع التيار المعاكس لاتجاهها وهداها ، وهو سبب ما نراه من غربة ومن تمزق للفطرة والعقل « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا قبديل لخلق الله » .

(٢)

إن الانسان حين يواجه النظريات التي تحاول أن تفهمه يجد عجباً ، يجد مفهوماً يعتبره مذنباً خاطئاً يولد حاملاً لما يسميه الخطيئة الأصلية التي ورثها عن أبيه آدم ، ثم هو في رأي لحظة أخرى مجبور التناصح ، ثم لا يلبث أن يجد نفسه سيداً للكون مؤلماً ومعبوداً ، ثم لا يلبث أن يرى نفسه حيواناً مجرد حيوان . فهذه نظريات متعارضة تتجاوز الحقيقة ، لأنها تنظر إليه من خلال منهج للمعرفة منحرف او ناقص .

أما في الاسلام ، فالانسان غير قابل للخضوع للقبول العلمية المادية ، وليس محكوماً عليه بخطيئة أحد « وأن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى » ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، وهو ليس عبداً للأهواء والشهوات ، وقد أعطته الأديان الضياء الذي يكشف أمامه الطريق إلى القدرة على مغالبة الأخطار التي يواجهها خلال رحلة الحياة بين الشر والخير والحق والباطل . أعطاه الله المنهج المتكامل ، ووضع له الضوابط والحدود ، وأعلن المسؤولية الفردية ، والجزاء الأخروي . فأصبح الانسان واضح الطريق متكامل المفاهيم ، منطلقاً الى غايته في الحياة ، لا تحذله العزلة ولا الغربة ، لأنه منطلق تحت عين الله التي ترعاه .

ولكن العلمانية لا تريد للانسان أن يعرف طريقه ، وأن يكون قادراً على أداء مهمته ، وعلى اجتياز امتحانه . ولذلك فهي تحرف وتزيف ، وتفسد الفكر الانساني بأن تعزله بالمادية ومفهوم العقل المحدود ، ودعوى التطور المطلق ، ونسبية الاخلاق .

واقد كشف الله للمسلمين هذا الخطر ، وتحدث القرآن عن الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وعن الذين يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله . ودعا المسلمين الى اليقظة والحذر ، وكشف لهم منهج المعرفة الرباني الخالص « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون » فله الحجة البالغة .

ونعى على أصحاب التبعية الذين غرتهم الأهواء والأضواء وزخرف القول فوصف قلوبهم بأنها لا تفقه ، وعيونهم بأنها لا تبصر ، وآذانهم بأنها لا تسمع « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها » اولئك كالأنعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون ، ذلك هو الخطر الذي كان على المسلمين الحذر منه . خطر الانشطارية ، وخطر فهم الحياة بمقياس ناقص الأدوات ، وخطر بقبول هذا المقياس ، والاستغناء عن المقياس الأصيل ، المقياس الجامع المتكامل في منهج للعلم ، له أصوله وضوابطه ، وفهم للمعرفة له أسسه ومقرراته . أساس الأمر وملاكه ، ان الانسان جسد وروح ، وعقل وقلب ، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون متكاملًا . إن النظرة الى الانسان على أنه جسد ومادة ، وتطبيق مناهج العلوم المادية او التجريبية التي طبقت على الأحجار او على الحيوان عليه تأتي بنتائج ناقصة وتحول دون الوصول الى الحقيقة .

إن العقل البشري أداة فاحصة ، تهدي الى الحق في نطاق مهمتها . وفي إطار رسالتها ، فالعقل البشري ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شيء ، إنه لا يستطيع أن يتخطى عالم المحسوس ، أما عالم الغيب وعالم النفس جزء منه ، فإن له علماً آخر . وفيهما آخر لم تتوفر للانسان وسائل الحصول عليه ولذلك فقد منحتة إياه الأديان وجاء به الوحي.

(٣)

إن فطرة الانسان هي خير مصباح له في طريق المعرفة . لقد قامت الفطرة على التوازن . فالإنسان يقبل الاعتدال بين الصعود الى الزهادة والهبوط الى الإباحة ، ويكره فقدان التوازن ، ويحس بأنه ليس سليماً تماماً إذا انحرف به الميزان ، وما يزال الدين هو الضوء الكاشف ، فإذا تجاوز هذا الضوء وقع في الظلام ، والاسلام دين الفطرة ، أقر بالتوازن البشرية ، واعترف بواقع الانسان وفتح له الطريق الى تحقيق رغباته في نطاق واضح ، وفي إطار سليم يحمي الشخصية الفردية من التدمير او الفساد ، بالانحراف والجود ، بالإباحة والترف ، او بالزهادة والعزلة .

لقد أعطت الحضارة المادية الانسان معطيات جعلت حياته خيراً مما كانت . ولكن هل استطاعت أن تملأ قلبه بالطمأنينة والأمن والسكينة والمحبة . لقد عجزت الحضارة عن ذلك ، بل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن الخطوات التي خطتها البشرية في ظل نعماء الحضارة ، قد دفعت الانسان الى مزيد من الشقوة النفسية والغربة والتمزق ، لأنها عزلته تماماً عن نداء روحه ، وصوت قلبه ، عزلته عن شطره الدافق ، وجمدته وأصابته بالفساد ، فهاذا أعطى التقدم المادي الانسان حتى يصبح قادراً على الحياة بغير ضوء الدين الكاشف ، ومصباح الفطرة المضيء .

إن طبيعة الانسان ثابتة لا تختلف ، انه بغريزة التدين القائمة في أعماقه ، لا يستطيع أن ينصرف عن التوجيه الإلهي . إن طبيعة الانسان قد شكلت على نحو يجعل صاحبها متطلعاً الى القوة العليا في أوقات الشدة والكرب ، رغباً الى الايمان القادر على إيجاد التوازن الدائم في أعماقه بين المادة والروح .

ولما كانت هذه الطبيعة البشرية عاجزة بنفسها ، فإنها في حاجة دائمة الى نذير ، الى صوت مذكر ، الى كلمة الله .

ولقد جرت محاولات « العلمانية » عن طريق الفلسفة المادية الى إحلال « المعرفة » مكان « الايمان » وجاءت مذاهب كثيرة لتجعل الاخلاق واجباً ، ولتحل الايديولوجيات مكان الأديان ، ولكنها عجزت عن أن تصل الى أعماق النفس الانسانية ، عجزت عن أن تلتقي بالفطرة ، وتؤكد للفلاسفة الماديين والمثاليين جميعاً أنه لا المعرفة ولا الثقافة ، ولا تجارب الحياة تستطيع أن تغني النفس الانسانية عن الدين او تزوده بالقوة التي يحس في جوارها بالأمن والطمأنينة .

ولقد جرت دعوات الى فصل الدين عن الاخلاق ، وإعلان الاخلاق مجردة عن رابطتها بالعقيدة ، وتبين ان الاخلاق لا تستقيم إلا في ظل الايمان بالله ، ومن داخل إطار التوحيد . وإن أدياناً ونحلاً كثيرة قامت على الاخلاق وحدها ، ولكنها عجزت عن أن تعطي الانسان ثقته بنفسه ، او تنحي عنه التمزق والقلق والغربة . وجاءت فكرة « الأبوة » محاولة أخرى في سبيل الطمأنينة واليقين ، ولكنها كانت عاجزة عن أن تقدم شيئاً . فإن الصلة الحقيقية التي تعطي اليقين ، إنما تلك التي تقوم بين العبد وربّه بين الانسان بفهوم العبودية لله وحده .

إن محاولة تفسير الانسان تفسيراً عقلياً او علمياً او مادياً ، قد فشلت

فشل لا حـد له ، شأنها شأن محاولة تفسير العالم والكون تفسيراً عقلياً او علمياً او مادياً ، فقد ثبت أن منهج المعرفة منهج كلي جامع ، وأنه لا يقتصر على منهج العلوم والتجربة .

وإن الفلسفة لم تعتمد قدرة على أن تحقق شيئاً . فقد خضعت للمادية ، وعزلت نفسها عن الرؤيا الكاملة . ولم يعد غير الدين الحق ، ومنهجه في المعرفة ، ذلك المنهج المتكامل الشامل .

(٤)

ولقد جرت محاولات كثيرة للقول بالتعارض بين الروح والجسد، واستحالة التوفيق بينهما ، والقول بأن الجسد هو سجن للروح . والواقع ان التعارض في المناهج لا في طبيعة الانسان ، فالمناهج القائمة على التجزئة والانشطارية ، والتي تقول بأن الانسان روح لا جسد شأنها شأن المناهج التي تقول بأن الانسان جسد لا روح ، كلاهما متجاوز لمنهج المعرفة الجامع الكامل .

لقد قدم الاسلام - بوصفه الدين الخاتم - منهجاً متوازناً جامعاً بين المادة والنفس ، والعقل والقلب ، والروح والجسد ، بعيداً عن المثالية المجردة والمادية الخالصة قائماً على الواقع والفطرة ، لم يهمل مطالب الجسد، ولم يجعلها غاية الانسان، ولم يهمل الروح، ولم يطالب الانسان بالزهد في معطيات الدنيا ومعطيات الانسان من حيث هو بشر له غرائزه ومطامحه وأشواقه .

ولكنه نظم هذا في إطار التكامل والحكمة ، وفي حدود الضوابط والحدود التي هي في نفسها مكنات البناء السليم للانسان والمجتمع ، فليس الانسان مطلوباً للاعتكاف والزهادة ، وليس منطلقاً للترف والانحلال . ولكنه مطلوب لأداء رسالة عمل وبناء وكشف وجهاد من اجل تحقيق غاية الكون واستمراره ، وفي طريق الانسان احوال وأخطار ، ومعه

حصانة وحماية لتغطي الحواجز وأمامه أمانة لها تكاليف ومعه عقل يهديه .

فليس هناك تعارض بين الروح والجسد ، إذ منها معاً تشكل بناء
الإنسان ، وهما ليسا عنصرين متعارضين ، ولكنها متكاملان ، ليس بينهما
تضاد ، بل بينهما توافق .

فالقول بتعارضها يصدر عن قصور النظرة والمعجز عن فهم منهج المعرفة
المتكامل الجامع .

الفصل الخامس
موقفنا وموقف الغرب

العلمانية نتاج بيئة الغرب بكل تحدياتها ومفاهيمها . وهي مرحلة قالية
لمراحل كثيرة قطعها المجتمع الغربي ، والفكر الغربي في سبيل تحقيق وجود
اجتماعي منفصل عن الكنيسة والدين ، ولذلك فإن محاولة نقله الى دائرة
أخرى تختلف من حيث المفاهيم والتحديات يبدو عسيراً ، فإذا كانت البيئة
التي نشأ فيها، وجرت المحاولات لتسويده فيها قد عارضته وقاومته، وما تزال
تقاومه الى الآن . فكيف يمكن فرضه في بيئة أخرى ، ليس لها مثل تلك
الأوضاع .

والبيئة العربية الاسلامية اليوم تقف من التجربة الغربية كلها في مجال
الايدولوجيات موقف الحذر والشك والمعارضة لأمرين كبيرين، لا لأمر واحد.

(الأول) انها شبت عن طوق التقليد ، وخرجت من إطار التبعية ،
وأصبحت قادرة الآن على ان تملك إرادتها ، وتحقق رشدتها في مواجهة كل
فكر وافد .

(الثاني) لأن التجربة العلمانية، وكثيراً مما يطرحه الغرب اليوم، قد فشل
فشلاً ذريعاً في تحقيق غايتها في بيئته - وهو نبت بيئته وتناجها - فكيف

يكون صالحاً في بيئة أخرى تختلف اختلافاً بعيداً من حيث العقائد والقيم والمثل العليا ، ومناهج الحياة ومقومات الفكر .

إن تجربة الغرب كله الآن معروضة على الدنيا كلها بعد أن تبلورت في (أزمة الانسان الحديث) (وأزمة الحضارة) وفي ذلك التمزق والاضطراب والفساد والتدمير النفسي والاجتماعي الذي يعانيه مجتمع الغرب ، بالرغم من كل معطيات العلم - فكيف يستطيع الغرب أن يغري الشرق بتجربته في مثل هذه المراحل المنهكة منها والمضطربة . كان يستطيع الغرب أن يحقق بالإرادة الحرة لمختلف البيئات قبولاً لو تحقق له ظفر او نصر او استطاع ان يكون المجتمع الطوبائي الذي كان يحكم به حين انسلخ عن المعطيات الدينية كلها ، ومضى يشق طريقه ليكون « ايدولوجية » مستقلة منفصلة معارضة لكل معطيات الدين الحق .

لقد تجاوز الغرب كل ما قدم له من معطيات عن طريق الأديان . وإن كان لتفسيرات الدين أثرها في أزمته وتحوله ، غير أنه عجز أن يلتبس مفاهيم الدين الحق . ووقف من الاسلام موقف العداء الشديد والخصومة المتعصبة ، قبل أن يقف على الحقائق ، فقد كانت هناك قوى كبيرة تصده عن أن يفهم التجربة الاسلامية ، وظل قاصراً في حدود التفسيرات الدينية التي عارضت انطلاقه في مجال العلم والتجريب ، فلما اشتدت أزمته الروحية ، وتفاقت ، وجهه ناصحوه الخبيثاء الى الفلسفات الشرقية الغنوصية التي هي من نفس نبع الوثنية الهيلينية الاغريقية .

إن الغربيين يفهمون اليوم أزمته تماماً . ولكنهم غير قادرين على التماس الطريق .

يقول الاستاذ جود في كتابه (Philosophys for our times) : ان دين

اوروبا اليوم هو المادية لا النصرانية . لم يزل سائداً على عقلية انجلترا منذ قرون شره المال والتملك ، ويسمىها جون جينتز « تلك الحضارة التي تعوزها الروح » . ويقول : « ان الانجليز إنما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الاسبوع ، ويتوجهون في اليوم السابع الى الكنيسة . إن الفلسفة الحقبة التي ازدهرت في جو من الانحلال الديني ، وراجت في حياة أهل الغرب ، فعلاً إنما كانت فلسفة النفعية (Utilarism) وعلى هذه الفلسفة أسس بناء المدنية والحضارة في الغرب » .

لقد بدأت الحضارة الغربية على أسس الاخلاق المسيحية ، ومنتجات المنهج العلمي التجريبي الاسلامي . ولكن حركة التنوير التي قادتها التلمودية من خلال محافل الماسونية ، استطاعت أن تدفعها دفعا الى مجال الوثنية الاغريقية ، وغلبة المادية ، والقضاء على كل ما يتصل بالأديان والاخلاق . وبذلك استطاعت الايدولوجية التلمودية أن تستوعب الفكر الغربي كله ، وأن تحتويه ، وأن توجهه وجهتها الخالصة .

يقول جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الاطفال والوحوش .

لقد استطاع الطابع المادي أن يسيطر على الحضارة الغربية والفكر الغربي ، وأن ينقلها من تسامح الروح المسيحية الى عنف مفاهيم اليهود التلمودية ومن روحانية الدين الى مادية الربا وسلطان المصرف .

إن الحضارة الاوروبية قد استطاعت عن طريق الاستعمار ان تكشف الوجه الحقيقي لأهدافها في إعلاء الجنس ، وإذلال الملونين ، وإشاعة روح الفساد ، وتعطي قصة حرب الأفيون التي أعلنتها بريطانيا على الصين عام ١٨٤٠ دليلاً من أدلة كثيرة على هذا الاتجاه الخطير ، فقد قصدت بالحرب

إجبارها على العدول عن قرارها بمنع دخول الأفيون الى بلادها من الهند ،
لأن الأفيون يدر على تجار بريطانيا ثروة كبرى .

هذه الحضارة الغربية التي قامت على أساس المادية . والتي جاءت العلمانية
لتمثل حلقة خطيرة من حلقاتها ، لا يمكن أن تكون المثل الأعلى الذي تتقبله
الذات العربية الاسلامية، وترضى به، لأنها تعرف أنه يقوم على أساس امتحان
الدين والأخلاق .

(٢)

أما العلمانية ، فنحن نرى اليوم كيف تواجه أوروبا العلمانية وتعارضها بعنف . فقد رأى رجال الدين ^(١) أن الوثنية في أوروبا قد غيرت شكلها الخارجي . واتخذت شكلاً يقوم على الانفتاح والتسامح المبين على القواعد العقلية ، وعلى الثقة بالذات . فأمرعوا قبل أن يسبقهم الزمن ، وتغلبهم التيارات الدهرية ليلبسوا الدين وتقاليده ثوباً عصرياً يفوق بأناقته وجاذبيته ثوب التيارات الدهرية ، والمجمع الكنسي الأخير لم تكن له غاية غير هذه الغاية بالذات .

وهناك حقيقة لا تقل أهمية : هي أنه يوجد في أوروبا المعاصرة بقطة دينية جعلت (العلمانية) تقف موقف العاجز عن متابعة السير ، هي نقطة الشعور الديني على الصعيد الفردي والاجتماعي والسياسي .

وهذا يعني أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط ، ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد وآخر يشعرون أنهم اخوة في الوطن بصرف النظر عن أنهم اخوة في الدين . ولا يمكن الجزم

(١) بتصرف من بحث للدكتور محمود رضوان - مجلة الوعي الاسلامي ١٩٦٩ .

بأن العلمانية قد نجحت في تحقيق غايتها ، وهي إقامة دولة ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي فقط ، ذلك ان الصعيدين الاجتماعي والسياسي ليسا سوى نتيجة حتمية للصعيد الفردي .

والعلمانية يشق عليها أن تنجح في بلد يكون الشعور الديني فيه يقطاً ، والواضح اليوم أن القضاء على الشعور الديني لم ينجح حتى في البلاد التي تدين بالإلحاد رسمياً .

وتظهر العلمانية كل يوم وجهاً جديداً من أوجه عجزها ، وتتقف مكتوفة الأيدي إزاء المشكلات التي يعانيها المجتمع الذي ولدت فيه .

ولا ريب أن الكنيسة قد أخذت في السنوات الأخيرة خطة المواجهة للعلمانية على نحو واسع . فقد اقتحمت الكنيسة ^(١) دائرة الدولة . وبالأخص جانبها السياسي . وذلك بإنشاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية كي تمارس سياسة الدولة من غير غضبة من المسيحية ، او من غير تطرف ضدها ، بل في عطف عليها ، وتمكين لجميع النظم الدينية في حياة المجتمع . وبذلك لا تكون الدولة في عداوة مع الكنيسة ، بل في خدمتها . وبذلك لم يصبح الاتجاه العلماني في المجتمعات الغربية ذا خطر على الدين وهو المسيحية إلا يوم احتضنته الماركسية اللادينية ، وطبقته الشيوعية اللينينية ، فأصبح ذا خطر على الدين وعلى المؤسسات الدينية .

ومعنى هذا كله ان المجتمع الغربي الذي ولدت فيه العلمانية ونشأت وترعرعت ، يواجهها الآن بعنف ويعارضها بشدة باعتبارها نبتاً غريباً معارضاً للفطرة مغايراً لطبائع الانسان .

(١) من بحث للدكتور محمد البهي - مجلة القبس الجزائرية ١٩٦٩ .

ونحن نرى اليوم كثيراً من الكتاب في الغرب يعيدون عرض مفاهيم الدين وتفسيراته ، ويحاولون إيجاد صياغة جديدة تناسب العصر ، وتبرز في هذا الكتاب طوابع الاخلاق المسيحية والتقاليد الدينية .

ويكشف هذا الاتجاه جانباً آخر. ان مذهب العلمانية في القومية قد أصابه في اوروبا صدع كبير، وان محاولة تقديم الوطنية والقومية على الدين ما تزال تجد في اوروبا معارضة كبيرة ، وما زال الاوروبي المسيحي يرى ان اليهودي غريب عن المجتمع ، ويقف منه موقف الكراهية .

(٣)

إن العلمانية بحق كما أشار كثير من الباحثين، لا تستطيع أن تشق طريقها في بلد يكون فيه الشعور الديني يقطاً ، فكيف بها في بلاد يعد الدين جزءاً عضوياً من تكوينها الأساسي .

ذلك ان العلمانية ما كانت تستطيع أن تقتحم عالم الاسلام والعرب ، لو كان هذا العالم يملك إرادته الحقة ، ويمارس منهجه الفكري وايدولوجيته الاجتماعية كما جاء بها القرآن ، ولكن العلمانية استطاعت أن تدخل مع النفوذ الأجنبي ، وتتخذ لها موقفاً من خلال الاقتصاد والتعليم والقانون . غير أنها عاشت العمر كله كالشيء الغريب ، فلإنها لم تجد من العوامل ما يمكنها من التأقلم ، فلم يكن قد ارتكب الدين في عالم الاسلام ما يدعو الى الصراع او الانقسام ، ولم يكن علماء الدين يوماً ممن يفرضون نفوذاً او حكماً . ولم يكن الدين الذي عرفوه معارضاً للعلم ، بل كان مصدراً لمناهج العلم والمعرفة جميعاً . وما زال الاسلام بمرونته قادراً على العطاء في مختلف جوانب الحياة .

أما الغيب الذي عرفه الاسلام للمسلمين ، فهو حقيقة أصيلة ، قالت بها الأديان ، وأكدتها الفطرة وأيدها العقل . وإن عجز العلم عن اقتحام أفقها فإنه اعترف بها أخيراً ، وهو غيب مستنير في مفهوم أصيل لا يرتبط

بالأسطورة ، ولا بالخرافة ، ولا يوصف أهله بالعقلية الغيبية التي هي جمود وتحلف ، وإنما هو أفق لا تستكمل المعرفة الأصيلة إلا به ، وهو جماع العقل والقلب ووحدة الروح والمادة ، وترباط الدنيا والآخرة ، وهو أساس متصل بالوحي والإيمان بالله ، يؤكد المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي ويربطها بالبعث والجزاء واليوم الآخر ، دون أن يتعارض ذلك مع العلم أو التقدم أو التطور المنضبط في قاعدة الثبات .

ولقد واجه هذه القصة عدد من الباحثين^(١) في العالم الإسلامي ، وكان من رأيهم أنه من التجاوزات الخطرة الظن بأن أمة تشكلت ، والدين جزء من تكوينها الاجتماعي والعضوي ، تستطيع أن تتخطى عنه . والمسلمون يؤمنون بأن الحياة الدينية الصحيحة ، هي أساس مظهر الحياة الانسانية .

فالإنسان المتدين يؤمن بوجود خطة كونية تدير بموجبها الانسانية ، وتخضع لإرادة إلهية موحدة ، ومحركة للإنسانية جمعاء . أما الانسان المجرد من الدين ومن الحياة الروحية ، فقد يهبط روحياً وخلقياً الى مستوى المعجانات .

ومن شأن هذا الترابط العضوي بين الدين وحياة الانسان . فإنه من العسير فصل الدين عن الدولة . ذلك ان عزل الدين عن الدولة ، بدأ في ظروف تاريخية خاصة في اوروبا حين كان الصراع بين الكنيسة وبعض ملوك اوروبا صراعاً عنيفاً ، وحين كان الصراع بين الطوائف المسيحية الواحدة بعد الأخرى يسبب حروباً دموية تدوم عشرات السنين . وحين كان رجال الكنيسة يقاومون النظريات العلمية الحديثة . أما اليوم فقد انتشرت الثقافة العامة في الشعوب ، وأصبحت الحكومات المدنية غير خاضعة لرجال الدين وأصبح الباحث حراً طليقاً في أبحاثه . وفي الاعلان عن نظرياته ، فلا يعيقه

(١) من بحث للدكتور محمد فاضل الجمالي .

أحد . فلم يبقَ مبرر لفصل الدين عن الدولة أي العلمانية . بل يمكن القول بأن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها . فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها ، رجعية من حيث الدولة ، حين تهمل واجباً من أهم واجباتها .

ولدت من الضروريات الحتمية اليوم في عالم العرب والاسلام . قيام دولة مدنية متدينة تعنى بحياة الانسان مادياً وروحياً عناية غير مجزأة ، ولا منشطة ، فوحدة حياة الانسان مادياً وروحياً ، هو ما يجب أن تعنى به الدولة ، فالدولة يجب أن تكون متدينة تسدين أكثرية السكان ، ولكنها في الوقت نفسه يجب أن ترعى شعور أبناء الأديان الأخرى ومصالحهم الدينية على قدم المساواة ، فتعنى بتهيئة ظروف التعلم الديني لهم على اختلاف أديانهم ، وأن تكافح التعصب الديني والجهود الفكري ، أما عن التجربة نفسها في العالم الاسلامي ، فهل حققت أهدافها ؟

يقول الدكتور فاضل الجمالي : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها في البلاد التي طبقت فيها ، بل وقعت في تناقضات واضحة . ولا سيما في حقل التعليم ، ولا شك أن الهدف الأول من العلمانية في العلم ، هو ضمان وحدة أبناء المذاهب المختلفة في الأمة الواحدة ، ولأجل هذا أبعدت الثقافة الدينية عن المدارس العامة في كل من فرنسا ، والولايات المتحدة . ولكن أبناء الشعب الذين يؤمنون بأهمية الثقافة الدينية اضطروا الى إرسال أبنائهم الى مدارس دينية خاصة ، بدل إرسالهم الى المدارس العامة .

أما في تركيا فقد أسس مصطفى كمال العلمانية كردة فعل ضد الخلافة العثمانية ، ولكن الشعب المسلم لم يقبل العلمانية ولم يهضمها ، ولذلك جاء الحزب الديمقراطي معبراً عن مشاعر الشعب التركي حين قام «عدنان مندريس» بتشييد ما يقرب من ألفي مسجد في القرى التركية ، وقسام بتجديد المواقع

العظيمة الجميلة في استانبول . وقد اعتبر عدنان مندريس رجعيًا من أجل سياسته هذه . والحقيقة أنه قام بتلبيته رغبة ملحة من رغائب الشعب التركي وهو رجل مجتهد ، وليس رجعيًا ، ولكنه كان يؤمن بالله وبالاسلام كما يوقن بأهمية الدين الصحيح في حياة الشعب وتوجيهه نحو الخير .

وقد يكون تطبيق العلمانية في البلاد المسيحية أسهل منه في البلاد الاسلامية ، وذلك لما جاء في إنجيل متى من أن « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، وقد يكون الأهم من ذلك ان المسيحية لم تشمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة . أما الدين الاسلامي فبالإضافة الى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق ، فإنه جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان في شتى نواحيها من المهد الى اللحد، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الانسانية . وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم. أهمية الشريعة الاسلامية وما تحويه من ثروة ذاخرة، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال المتطورة ، وما تشريع القانون المدني الحديث في مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية إلا دليل على ذلك .

فعلمانية الدولة في البلاد الاسلامية ، معناه تنصل الدولة من الشريعة الاسلامية التي هي أهم عامل من عوامل توجيه حياة الشعب اليومية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الاسلامية بصورة عامة ، فإنها لا تلائم الأمة العربية بصورة خاصة . لأن الأمة العربية مدينة للاسلام في تكوينها الحاضر، ويجب أن تكون حاملة رسالة الاسلام الى الانسانية جمعاء، فالفصل بين الدين والدولة معناه تجرد الحكومة العربية من أهم مقوماتها .

فالأمة العربية منفصلة عن الاسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه، وهذا الفصل يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه، وما أسهل دخول المبادئ الوافدة على اختلاف أنواعها لتعلاً الفراغ في القشر الفارغ .

(٤)

ويؤكد غير واحد من الباحثين « أن هناك أسباباً خاصة بالغرب وحده، جعلت أهله على غير وفاق مع الدين - دينهم هم - ومثل هذا الخلاف قنمكس آثاره على الاضطراب الاخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي يسود اليوم أجزاء واسعة من العالم ، بدلاً من أن يخضع الغربيون سلوكهم وأفعالهم لمعايير القانون الاخلاقي الذي هو الغاية القصوى لجميع الأديان . لقد أصبحت المصلحة هي القانون الوحيد المهيمن الذي يجب أن تعالج في ضوءه كافة الشؤون العامة » .

ومن ناحية أخرى فإنه لا يوجد في الدولة العلمانية مفهوم ثابت يمكن به التمييز بين الخير والشر ، والعدل والظلم . وفي حالة عدم وجود ميزان ثابت للقيم الخلقية . فإن الأفراد حتى في حدود الأمة الواحدة ، ستصبح لديهم وجهات نظر متباينة كل التباين ، ومن هنا تبني كل جماعة قوانينها الخلقية على أساس نظرياتها الاقتصادية ، وهناك أيضاً القول بأن مطالب الجماعة في تغيير دائم . ومن هنا فإن قيم الخير والشر والعدل والظلم متغيرة . ومن هنا تصبح هناك حقيقة ملزمة في ذاتها . ولا توجد أية التزامات اخلاقية تضبط العلاقات البشرية .

وأخطر ما في مفاهيم العلمانية في هذا الاتجاه هو القول بأن مقاييس العدل والظلم ، والخير والشر ، هي من صنع البشر ، وأنها مفاهيم تتغير بتغير البيئات والعصور (١) .

وليس أخطر من هذه الدعوة الى نسبية الاخلاق ، وتذبذب ميزان القيم بين عصر وعصر . ذلك لأن ثبات القيم الاخلاقية أساس أكيد للبشرية ، وأن أي محاولة لتحطيمه . إنما يستهدف تحطيم قاعدة البناء الانساني كله .

(١) هذه المفاهيم يتصرف من دراسة للدكتور محمد البهي .

(٥)

وفي مجال الشريعة الاسلامية نرى بوضوح ان للاسلام نظاماً اجتماعياً متميزاً
خاصاً ، يختلف عن الأنظمة السائدة في الغرب . وفي خلال تاريخ الاسلام
كله لم يعرف المسلمون الحكومة الشيوقراطية التي تدعى العلمانية أنها حاربت
للقضاء عليها .

لم يعرف المسلمون ذلك النظام الذي نقله التاريخ عن اوروبا في القرون
الوسطى ، عندما حاولت طائفة رجال الدين أن تمسك بيدها بأزمة السلطة
السياسية العليا ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لا وجود في الاسلام للكهانة ،
ولا لطائفة ممتازة تدعى رجال الدين ، لهذا يستحيل أن توجد في الاسلام
مؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التي تختص بأسرار الدين وطقوسه . ولما كان
كل مسلم بالغ له الحق المطلق في أن يمارس بنفسه شعائر الدين ، فليس هناك
شخص او جماعة تستطيع أن تزعم لنفسها نوعاً من القداسة اكتسبتها عن
طريق شعيرة دينية او طبقة كهنوتية اختصت بها من دون الناس .

والحق أن تعبير (الشيوقراطية) كما يفهمه الغرب ، لا معنى له على الاطلاق
في المجتمع الاسلامي ، ويصدق بأنه لو كانت العلمانية من أجل استغلال الدين
وحده ، ولم تكن وراءها أهداف أخرى ، لكان الاسلام هو آخر الأديان
التي يمكن أن تفكر في العلمانية او تتجه إليها .

فإن الاسلام لم يعرف استغلال الدين ، ولم يعرف تاريخه ، ما شهدته تاريخ اليهودية والمسيحية من حركات عنصرية عدوانية ، لها صيغة دينية ، كادعاء الملوك استمداد سلطتهم المطلقة (١) .

إن الاسلام لم يعرف وساطة ولا كهانة بين الله والخلق ، ونظرية الحق الإلهي ، او التفويض الإلهي ليست معروفة في الاسلام .

(١) أزمة الفكر الاسلامي : دكتور عبد الحميد متولي .

الفصل السادس
منهج الإسلام في المعرفة

لا ريب أن للاسلام والفكر الاسلامي منهجاً أصيلاً لا يحتاج المسلمون معه الى مناهج وافدة لعدة أسباب :

أولاً : تكامله وشموله وجمعه بين العقل والقلب والروح والمادة والدنيا والآخرة .

ثانياً : طابعه الانساني الخالص من حيث اشتغاله على مفاهيم العدل والرحمة والأخوة .

ثالثاً : مرونته وقدرته على الحركة والتقبل والانفتاح للبشرية في كل عصورها وبيئاتها .

وهو ليس منهجاً علمياً من حيث اعتماده على التجربة وحدها ، ولكنه علماني بمعنى مطابقته للفطرة والعقل وارتقاؤه عن جزئية مناهج العلم التجريبي المنشطر ، وعن ما يوصف بالعقلية الغيبية القائمة على الأساطير ، والخرافات ، وتفسيرات الدين بالأسرار ، وما يتصل بالسحر وغيره ، مما ينكره العقل الاسلامي ، هذا مع تكامله الصريح في الايمان بالله والوحي ، وعالم الغيب والآخرة والجزاء . فالاسلام يرسم منهجاً عاماً للمعرفة ، ويكون المنهج العلمي

التجريبي جزء منه، وهو منهج رسمه الاسلام من خلال القرآن مصدره الأول. وقبل أن تعرف أوروبا مناهج العلم والتجريب بسبعة قرون على الأقل، ولم يعد هناك ريب في ان الاسلام هو الذي أنشأ المنهج العلمي التجريبي، وأن المسلمون أول من نادوا بالاستقراء والقياس والتمثيل، ويصور العلامة بريفولت هذا المعنى في كتابه (بناء الانسانية) على نحو واضح . « ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوروبي . إلا ويمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة . فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس ما قدموه إلينا من كشف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكبر من هذا » إنه يدين لها بوجود نفسه .

إن أول من قال : إن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله : ليس « سيكون » بل المسلمون ويكون أخذ هذا من العرب ، واستقى هذا من الاسلام ، وتلقى علومه في الجامعات الاسلامية في الأندلس ، وذلك باعتراف سيكون نفسه (١) .

ويؤكد الباحثون الغربيون اليوم : ان أقدس يوم في تاريخ أوروبا هو عام ٧٢٣ م ، العام الذي نشبت فيه معركة (بواتيه) ففي هذا العام تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية . هذا ما كتبه أفاقول فرانس في كتابه فوق الحجر الأبيض .

وقد أجمع علماء الغرب المنصفين ، على أنه ما من ناحية من نواحي تقدم

(١) د. عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي ، نقل عن اقبال .

اوروبا ، إلا وللحضارة الاسلامية منها فضل كبير ، وآثار حاسمة ^(١) ، وأنها أجمل الحضارات وأغناها في العصور الوسطى ^(٢) وأنه لا يقتصر فضلها على الناحية العلمية ، بل يمتد الى الناحية الروحية والاخلاقية وإلى المثل العليا النادرة في تاريخ البشرية ^(٣) .

ويقول جاروري: «ان روائع الاكتشافات العلمية والفنية للحقبة الهلينية (اليونانية) بعد القرنين ٢/٣ قبل الميلاد لم تنجح في تغيير العالم . وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية ، إذ أن انتشار الرق كان عقبة أمام التكنيك العلمي في أحداث تغيير جذري للحياة الاقتصادية ، فاستغلال قطعان العبيد (الأرقاء) الذين كانوا يحصلون عليهم بسعر خيالي ، كان يحقق مزايا أكثر من تلك التي يحققها تشغيل الآلات ، وهكذا فشلت الثقافة الهلينية في خلق حضارة جديدة » وأن هذا نفسه هو ما تخبطاه المسلمون حين أعطاهم الاسلام مفهوماً شاملاً متكاملًا من المعرفة ، استطاع أن ينقل البشرية الى عصر العلم بمفهوم المسلمين القائم في نطاق الدين الحق ، او على حد تعبير العلامة درابر « العرب اول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » . وفي مختلف العلوم قدم المسلمون إضافات جديدة ، التأريخ ، والاجتماع ، والجغرافيا ، والطب ، والفلك ، والرياضيات ، والكيمياء ، فضلاً عن الآداب والفنون . وشهد العلماء الغربيون : لرحالهم ، البيروني . والخوارزمي ، والحسن بن الهيثم ، والخليل بن احمد ، وابن خلدون ، والغزالي ، وابن نيمية ، والمفكرون الغربيون المنصفون . هم على ان المسلمين هم الذين أيقظوا اوروبا

(١) روبرت بريغولت : بناء الانسانية .

(٢) بلاسكو أبانيز .

(٣) أزمة الفكر الاسلامي .

والغرب في القرن الحادي عشر الميلادي من القبر الذي دفنتهم فيه تفسيرات العلوم اللاهوتية .

ومن هنا فقد أنشأ المسلمون منهجاً للمعرفة ، فيه مفهوم الإصالة الإسلامية كما أنشأوا المنهج العلمي التجريبي .

ولقد قسام منهج المعرفة الإسلامي على دعامين : الوحي والتجريب ، وكلاهما مستمد من القرآن ، وتمثلت النزعة الإسلامية في مجال المعرفة والعلم معاً في التكامل والاخلاص للعلم ، والميل الى التجدد ، والتطور ، والحركة ، وإنصاف كل من سبق على الطريق مها كان مختلفاً في الدين .

ولقد كانت نزعة المعرفة الإسلامية قائمة على الموضوعية ، ومعاداة الأمور الشخصية والخاصة . « لا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا . أعدلوا هو أقرب للتقوى » .

فالمعرفة قائمة على الانصاف ، بعيداً عن الانفعال الشخصي ، والتعصب ، والنظرة الخاصة ، وهي جزئية في أسلوبها ، لا يمنعها قضاء قضته اليوم ان تغيره في الغد ، متى استبان لها وجه الحق (١) .

وقد أقام منهج المعرفة الإسلامي قواعده على أساس : البرهان ، والتجربة ، والتحرر من الظن والمتابعة بغير دليل ، واتباع مذهب السابقين تقليداً ومتابعة بغير حق . « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » . وعدم تبني أي فكرة حق الدين نفسه إلا عن طريق ما يثبت به العقل الصافي من أدلة يقينية ، وإجراء البحث عن الحقيقة في

(١) راجع خطاب عمر الى القاضي ابي موسى الأشعري .

ضوء الهدى الرباني الوحي والقرآن ، والنبي ، وإقامة القضايا على أساس ،
الوحي ، الحق ، البرهان ، الدليل ، التقوى في النقل ، الانصاف من النفس ،
سلسلة السند « قل هاتوا برهانكم » ، وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا
ينغي من الحق شيئاً .

والمنهج الاسلامي للمعرفة لا يتنكر للعقل ومنطقه ، ولا يحمله أكثر من
مقدرته ووظيفته ، ويدفع العقل الى الحركة في نطاق الوحي انطلاقاً الى
اكتشاف القوانين في مجال الطبيعة ، ولا يؤمن المنهج الاسلامي للمعرفة بعقلية
الجزئيات ، فإنها تحجب الصورة التامة الناضجة ، وهو ليس منهجاً عقلياً
خالصاً ، ولا وجدانياً حدسياً ، ولكنه منهج متكامل تكامل الانسان نفسه .
فالاسلام ليس عقلاً ، ولا جسماً ، ولكنه يجمع بينهما .

(٢)

إن أصدق ما يمكن أن يوصف به منهج المعرفة الاسلامي ، إنه منهج الفطرة ، وقد جمع الله فيه للانسان مناهج العلم ، ومناهج الانسانيات في حدود الهدف الواضح الذي فطر الله عليه الكون . وفي حدود المهمة التي وكلها الله الى الانسان في الحياة .

وقد أتاح الله سبحانه وتعالى للانسان عن طريق العقل البشري ، وجعل من مهمته في الحياة أن يكشف سنن الله في الكون والطبيعة ، وأن يجعلها مصدراً للعلم والعمران ، وكشف ما في الأرض من كنوز ومعطيات ، وذلك هو منهج العلم .

أما منهج الانسانيات (الاخلاق ، والنفس ، والمجتمع) فهو الحاكم الأصيل على العلم ومنجزاته ، والموجه لكل أعمال الانسان في الحياة ، والمقرر لمسؤوليته الفردية ، والتزامه الاخلاقي . ومن هنا فلم يكن في مقدور الانسان نفسه أن يضع منهج حياته . وهذه هي أخطر التجاوزات التي حاول الفكر الغربي أن يتصدى لها ، وبنائها على أساس خاطيء ، هو إخضاعها لمنهج العلمي التجريبي (الذي هو جزء من منهج المعرفة) .

ومن هنا قام منهج المعرفة الاسلامي على أساسين :

(١) سنن الله في الكون والطبيعة. (٢) سنن الله في الانسان والمجتمعات.

وهما أساسان متكاملان ، وليس منفصلين : أحدهما جزئي وقاصر على مجال التعليم ، والآخر كامل وممهد لطرائق العلم ، وحافظ لاتجاهاته من أن تنحرف الى الشر ، او الظلم ، او التدمير . ومفهوم الفطرة في الانسان حقيقة ثابتة لا تستطيع أي قوة أن تغير مجراها . ومن هنا كان ثبات القيم والأخلاق التي يقوم عليها كيان الانسان على اختلاف الزمان والمكان ، هذا الثبات هو الذي أعطى الأديان تلك القوة في إقرار منهج الانسانيات ، وإقامته دون تحول او تغير .

ولقد أكد القرآن حقيقة لا سبيل الى تجاوزها في الاسلام هي : استقلال الفطرة عن الزمان . وقد قرر الله سبحانه ، أن لا تبديل لسنن الله في الخلق ، ولا تحويل (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) .

ومن هنا نجد أن القول بأن الأخلاق نسبية تتصل بمجتمع او عصر ما ، دون مجتمع او عصر آخر ، هي من تجاوزات الفلسفة المادية . والدعوة العلمانية تحقيقاً لهدف ثابت من أصول الايديولوجية التلمودية القائمة على إنكار البعث والجزاء ، وما يتصل بها من مسؤولية الانسان ، والتي تستهدف بتعطيم هذه القاعدة ، دفع البشرية الى تجاوز الفطرة ، وتجاوز أصول الدين .

ولعل مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل (الذي أعلنه الله للناس في القرآن) من أخطر المبادئ التي قررتها الأديان ، وركيزة أساسية من ركائز منهج المعرفة الاسلامي ، ومناهج العلوم والحضارات جميعاً ، وهو مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة ، وهنا يبدو خطر المنهج العلمي او وجهة النظر

العلمية التي تحاول أن تطبق منهج التجريب الخاص بالعلوم المادية على ميدان الاجتماع والانسانيات (١) .

ومن هنا يمكن القول بأن منهج سنن الله في الانسان والمجتمع « هو الدين الحق المنزل » والذي يمثل الاسلام على اصفى ما يكون » .

ويمكن القول أيضاً بأن منهج « سنن الله في الكون والطبيعة » وهو العلم التجريبي يقوم أساساً في نطاق الدين باعتباره جزءاً منه .

يقول الدكتور الغمراوي : فإذا تم للانسان الجمع بين العلم والدين. تم ما يصح أن يسمى بعلمه سنن الله الكونية واستطاع الانسان أن يدرس العلم بروح الدين من غير أن يضحي بشيء من دقة العلم ، وأن يدرس الدين ويطبقه بروح العلم من غير أن يضحي بشيء من عبادة الدين ، هنالك يتم للانسان الاتحاد بين عقله وقلبه ، بين علمه ودينه ، وهذا شيء ممكن تماماً في الاسلام.

ويقول : وإن تجاوز الغرب لهذا التكامل ، وقيام الانشطارية بأخذ علم سنن الله في الكون والطبيعة منفصلاً عن سنن الله في الانسان والمجتمع ، هو مصدر ذلك التمزق النفسي الخطير. وتلك الأزمة العاصفة التي تواجه الانسان والحضارة الغربية ، وهو مصدر ذلك الخطر الجاثم على صدر البشرية نتيجة للذرة ، وما يتصل بها من مخاطر إفناء البشرية .

(١) من مجموعة أبحاث المغفور له الدكتور محمد احمد الغمراوي ، أجزل الله مثوبته .

(٣)

ربط الاسلام بين العلم والدين ، وجعل منهج العلم في نطاق منهج الدين ، بحكم ان الدين (الاسلام) هو الذي هدى الى العلم ، وأتاح للمسلمين إنتاج (المنهج العلمي التجريبي) . ولكن هذا المنهج حين خرج من أيدي المسلمين ، ووصل الى أيدي الغربيين ، انفصل عن قاعدته الأساسية ، وهي منهج المعرفة المتكامل الذي يربط بين الحق والقوة . ومن هنا مضى العلم في طريقه حتى أصبح قوة خطيرة تهدد المجتمعات بالتدمير .

يقول الدكتور الغمراوي : لقد علم الله ان هذه المدنية المعقدة ستكون . وان الانسانية ستتقلب في أطوارها التي تقلبت فيها ، وانها ستفتح لها أبواب العلم . وان هذا العلم سيفتح لها فنوناً من القوة . وان هذه القوة ستسلمها الى صنوف من المشكلات لا تحل حلاً مرضياً إلا إذا طبق " ما سنّ الله للفطرة من سنن " ، وللنفس البشرية من قوانين عرفت الانسانية بعضها ، وجهلت منها أكثر مما عرفت فأراد الله سبحانه وتعالى أن يتم نعمته على الانسان بأن يجمع له بين القوة وبين الهدى في استعمال القوة ، فأفاده العلم ، قبل أن يؤتبه العلم . أنزل عليه الكتاب والحكمة ليريه كيف يتقي شر العلم بالوقوف في استعماله عند الحدود التي حددها الله ، فاطر الانسان وفاطر القوى التي سخرها بالعلم للانسان .

وإذا كان من عجيب صنع الله للإنسان أن وهبه العقل الذي استفتح به كنوز العلم ، فأعجب من ذلك أن تقضل سبحانه ، فأنزل له الدين ليقيه ما لا يمكن للعقل ولا للعلم أن يكفياه إياه من الشرور والأخطار .

« إن أساس المدينيات ليس القوة ، بل إحسان استعمال القوة في سبيل الحق . وإن اعتماد الحضارة على هذه القوة المادية التي فتن بها الناس ناقصة ، لأنها تغفل جانب الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، من حيث أن المدنية نظام كامل ، الدين وجزء منه الأخلاق ، حجر الرchy فيه » .

(٤)

ومنهج الاسلام في المعرفة والعلم، الجمع بين شطري العلم والدين، او شطري القوانين الطبيعية وقيم الايمان . ولا يفضلون بين مجال القوانين الطبيعية وقيم الايمان في مجال الحياة ، ومنهج الاسلام ينكر ما يظنه الغربيون من أن للقوانين الطبيعية مجالاً، وقيم الايمان مجال آخر. وان قوانين الطبيعة قد تمضي في طريقها غير متأثرة بقيم الايمان ، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا ، سواء اتبعوا منهج الله أم خالفوه ، ينكر منهج الاسلام ذلك ، ويرى أنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية ، هي في حقيقتها غير منفصلة « فقيم الايمان في بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء ، ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ، لا مبرر للفصل بينها ، لا مبرر للفصل بينها في حس المؤمن وفي تصوره ، وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس » . فالقرآن يربط الواقع النفسي للناس ، والواقع الخارجي الذي يفعله الله لهم . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وحين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية قد يؤدي الى النجاح مع مخالفة قيم الايمان . فإن ذلك ليس إلا أمراً مرحلياً ، ولكنه سيؤدي في النهاية الى انقضاء قوانين الفطرة وسننها في الانسان والمجتمعات .

وهنا نحن نرى المدنية الغربية لمخالفتها لقوانين الفطرة قد انفجرت في

حربين عالميتين ، وما تزال تعيش في تهديد ينوشها كل لحظة (وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) . والحضارة الغربية اليوم ترقى في مجال المادة ، والعلم التجريبي في نفس الوقت الذي يتخلف في مجال البناء الانساني ، وتعاني أزمة من أشد أزمت الحضارة ، قوامها الحيرة والقلق ، والأمراض النفسية والعصبية ذلك لأنها أخذت بطرف من قانون الفطرة ، وتركت الطرف الآخر ، وانها أخذت شطراً من منهج المعرفة في مجال العلم ، ثم تركت الجانب الأهم في مجال الانسانيات والمجتمع والنفس والأخلاق .

إن التوازن والتكامل والمواءمة التي هي أساس الحضارات والمجتمعات تتطلب الجمع بين الطرفين في كل متكامل ، وهذا ما يحققه الاسلام .

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون . فإنقاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون .

(٥)

والانسان في مفهوم منهج الفكر الاسلامي متكامل بين الروح والمادة والعقل والقلب ، بل هو مصدر التكامل في الحضارات والمجتمعات .

والنفس الانسانية تنزع الى السيطرة والتفوق وإشباع الرغبات الجنسية والمادية . وهي بذلك الطابع الذي طبعت به في حاجة الى ضوء نافذ يهديها الطريق ، حتى لا يقودها الهوى . ولما كانت خصائص النفس الانسانية ثابتة على طول الزمان ، ومختلف البيئات ، لا يطرأ عليها تغيير . فقد كانت قيم الايمان في أصولها ثابتة ، لتواجه ثبات طبيعة النفس الانسانية التي لا تتغير معها اختلفت الظروف .

ومن هنا فقد كان منهج الفطرة للانسان والمجتمع والنفس والاخلاق الذي يختلف عن منهج الفطرة للكون والطبيعة ، فللعالم منهجه ، وللانسان منهج آخر ، ولا يصلح أحدهما للتطبيق على الجانب الآخر .

هناك قوانين للعلم التجريبي وقوانين للمعرفة ، وهناك قيم ثابتة لا يطرأ عليها تغيير . وهناك متحولات تتغير وتبدل . والعلم المادي يعترف بأن هناك ثوابت لا تتغير . وان هناك قوانين ثابتة لا تتأثر بظروف الزمان والمكان .

هذه هي نقطة الخلاف الكبرى في محاولة تطبيق قوانين العلم التجريبي على الانسان هناك الطبيعة وهناك الانسان .

وقد كشف الله للانسان قوانين الطبيعة ، وعجز الانسان أن يفهم أن مصدر علمه هو الله ، ولكن خطأه الأكبر هو ظنه أن في استطاعته تطبيق هذه القوانين على الانسان . نقطة الخطأ هي القول بأن القوانين التي طبقت في مجال الطبيعة تصلح للتطبيق في مجال النفس والاخلاق والمجتمع ، وكل ما يتصل بالانسان .

لا ريب أن الطبيعة هي قوة تختلف عن الانسان . ولذلك فإن القوانين التي تطبق على الانسان لا بد أن تختلف من عدة نواحي ، من ناحية أن الطبيعة مادة ، وان الانسان كائن ، وتختلف من ناحية ان الانسان كائن فيه مادة وروح ، أي أنه به عنصر زائد عن المادة . وتختلف في أن الانسان يختلف أيضاً عن الحيوان بأن له بالإضافة الى أنه مادة وروح ، عقلاً ونفساً ومشاعر وإرادة . هذه هي نقطة الخلاف الكبرى .

والواقع ان مفهوم الاسلام هو أن المنهج العلمي للانسان ، والمجتمع ، والنفس ، والاخلاق يختلف اختلافاً كبيراً ، وأنه ليس خاضعاً للتجريب ، او قائماً على النظرة المادية الصرفة ، ولذلك فقد جاء (العقل) بمهمة أساسية هي أن ينطلق لبناء المنهج التجريبي الذي يقوم على استخلاص قوانين الطبيعة ونواميسها ، بينما استأثرت الأديان ، ورسالات السماء بوضع المنهج الذي تقدم على أساسه قوانين النفس والاخلاق .

أما المنهج التجريبي المتصل بالطبيعة فإنه متغير منظور حسبما تختلف نظريات العلم ، وما تكشف كل يوم . أما المنهج الاجتماعي النفسي فإنه قائم على عناصر من الثبات ، وأساليب من الحركة ، الجوهر ثابت والظروف متغيرة .

ومن هنا كانت محاولة العلمانية هدم منطق رسالات السماء لتصل الى هدم الثوابت ، وإلغاء قاعدة الثبات ، ومنها تستطيع أن تصل الى إلغاء الفردية الانسانية ، والأسرة ، وإلغاء المنهج الجامع الذي يجمع الناس في وحدة فكر لدفع كل إنسان ليتخذ له أسلوباً ومنهجاً . وبذلك تتعزق وحدة الفكر الجامعة .

ومن هنا فإن العلمانية هي مذهب ضد الفطرة ، وضد تيار الحياة الأصيل . إن الدين الاسلام حين قدم سنن الفطرة في النفس البشرية ، قد رفع عن كاهل الانسان مشقة كبرى ، ودفع عنه أزمة ضخمة . لقد أراد أن لا يشغل الانسان عن مهمته الأصلية ، هو الوصول بالعقل سنن الفطرة في الكون والطبيعة لبناء الحياة ، وكشف أسرارها وكنوزها .

وقد أنزل الله كتابه ونبيه ، ليحسم هذا المنهج أساساً ، وذلك حتى يكون العلم في أحضان الانسان بالحق ، ولا يكون الانسان خاضعاً للعلم ، وحتى يكون العلم خيراً للبشرية . ويمكن اتقاء شره ، والوقوف في استعماله عند حدود الخير للبشرية ، أنزل الله الدين بقانون الفطرة في النفس البشرية ، ليحمي الانسان من مخاطر العلم وتطبيقاته .

ومن هنا فإن العلمانية ترفض اعتبار الدين أساس حياة الجماعة البشرية ، وربما كانت ترفض تفسيرات الدين في الغرب ، ولكن هل رأت الاسلام . ولما وجدوا ان العلم يخالف هدفهم دفعوا الى الفلسفة أهواءهم تحت اسم المنهج العلمي ، او وجهة النظر العلمية في ضوء إله جديد هو المادية ، بالإضافة الى آلهة أخرى ، هي الحضارة والذهب .

(٦)

إن خلاف منهج الاسلام الشامل في العلم والمعرفة ، ليس مع العلم التجريبي ، ولكن مع العلمانية بفهوم النظرية المادية التي تستوعب الاجتماع ، والنفس ، والاخلاق . في منهج تجريبي مادي ، ذلك ان منهج الاسلام في المعرفة والعلم جميعاً يقوم على أساس الترابط بين العقل والقلب . وإن أخطر ما في التقدم العلمي الصناعي ، هو انفصاله عن الخلق والدين ، انفصال العلم عن الاخلاق وانفصال الحضارة عن الدين . والانفصال في مجال التطبيق لمنجزات العلم ، هو الذي أحدث آثارة الخطيرة في نظرة الانسان ومفاهيمه في الاخلاق والنفس والاجتماع ، نتج عن هذا :

أولاً : ذلك الدعر القاتل الذي تواجهه النفوس الآن نتيجة الخطر الذري ، فقد أصبحت منتجات العلم مادة قاتلة تستطيع أن تنهي الحياة . وقد جاء هذا الخطر نتيجة انفصال العلم عن الاخلاق .

ثانياً : ذلك التمزق والقلق والاضطراب النفسي الذي فصل عن الانسان عن الدين ، ولو تعرف الذين حملوا منجزات العلم الى الله ، لمضت الحياة الى الهدف الصحيح .

وفي الحق ان العلم لم يسقط لأنّه في خطواته يدل على الله ، ويلتمس طريق التجربة ، ويعترف الآن بأن مهمته هي تفسير ظواهر الاشياء .

ولكن الفلسفة العلمانية هي التي حملت منتجات العلم الى مجال الخطر ، ودفعت البشرية بمفاهيم المادية الى الأزمة ، وأكبر المخاطر هو محاولة العلمانية ، إقامة منهج المعرفة الانساني ، ومنهج الحياة البشرية على أساس المادية ، وعزله عن الدين والخلق .

أما المنهج الاسلامي فقد جعل المنهج المتصل بالنفس والاجتماع والاخلاق إنسانياً طبقاً للظاهرة التي يدرسونها ، وهي الانسان نفسه الذي ليس هو قادة ، خالصاً ، ولا تنطبق عليه التجارب التي تجري على الحيوان .

ومن هنا كانت ضرورة التفرقة بين العلم وفلسفة العلم ، ذلك ان فلسفة العلم هي حجب لطاقت الانسان في أضيق نطاق ، وقصر اليقين على الملموس الملاصق ، وانها تصور خاطيء لمدارك الانسان .

ومنهج الاسلام يعمل على ايجاد تصور صحيح لمدارس الانسان ، وتحديد كامل لعلاقة الانسان بالكون والعالم على أساس الفطرة .

ووجهة النظر الاسلامية هي ان العلوم الانسانية من اجتماعية وأخلاقية ونفسية . لا يمكن أن تخضع لمنهج مادي عقلي ، لأن الانسان ليس عقلاً ومادة فقط . والانسان تجريد وتجسيد ، والعلم المادي تجسيد فحسب ، والتجريد هو الانتقال الى الآفاق الرجعية التي سعت الأديان الى أن ترفع الناس إليها .

أما التجسيد فهو قسر الانسان على النظر الدائم الى الارض والمادة .
والانجاء الى عبادة المصرف والذهب والحضارة ، إنه هيكل جديد من هياكل
الوثنية . ويمكن القول بأن التقدم العلمي ما زال حتى الآن تقدماً خارجياً
مادياً . وأنه لم يتجاوز ذلك الى أي تطور بيولوجي يمس عقل الانسان
او روحه .

(٧)

والعلم يقرر أن نظرياته ليست حقائق أزلية، وإن التصور المادي للكون متغير غير ثابت ، والعلم نفسه لا يقر الفلسفة في القول بأن حقيقة العالم مادة لا روح فيها .

ولكن الايديولوجية التلمودية من أجل تحقيق هدفها الماكر ، تعمل عملاً آخر، هو فصل المناهج ، وإقامة حائط كبير دون تلاقي العلوم والمتحصلات العلمية في إطار واحد ، هو حائط التخصص ، فكل علم معه شيء ، وكل مجموعة معها خيط رفيع ، ولكن لا سبيل إلى اللقاء هذه الخيوط ، لتكون نظرة شاملة ذلك ما تحول دونه الايديولوجية التلمودية ، حتى تبقى في يدها جميع الخيوط .

ولذلك فإن ما يقرره العلم التجريبي اليوم يعارض مفهوم الفلسفة والمادية والنظرة العلمانية ويهدمها من أساسها ، ومع ذلك فإن العلمانية تجري في طريق الايغال في المادية ، مع أن العلم نفسه قد تحرر من هذا القيد ، وأخذ الطريق للدخول في عالم يعترف فيه بالغيب ، ويطرق أبوابه .

هناك أكثر من حلقة لا تلتقي مع غيرها ، وهناك مذاهب في النفس

والاجتماع والأخلاق قد سقطت ، وأعلن العلماء فسادها ، ولكن آراء هؤلاء العلماء ما زالت خافتة ، بينما يتزايد صياح الآراء التي سقطت .

ثم هناك ذلك التضارب الذي يراد به خلق الصراع وإدامته ، بين الماركسية والليبرالية ، وبين الوجودية والعلمانية ، وهدف هذا تمزيق النفس البشرية ، والحيولة دون وصولها الى حقيقة ، او التقاط أنفاسها ، بل هو سوق شديد الى الصراع . والهيب الفرسان الدائرة في الحلقة بالسوط حق لا تتوقف .

ولو أمكن مراجعة هذه المذاهب وتضاربها ، لأمكن الوصول الى شاطئ المعرفة المتكاملة ، ولسقطت المادية سقوطاً شنيعاً .

(٨)

إن التقدم العلمي التكنولوجي الذي أحرزته البشرية في المجال الخارجي . ولم يتصل بنفس الانسان ولا عقله ، ولا تكوينه الروحي . بل إن النظريات التي وصفت بها في مجال الأخلاق والنفس والاجتماع . قد أقيمت على أساطير اليونان ، وإن فكر فرويد وسارتر ودوركايم وليفي بريل مشهد من الرموز الاصلية لأساطير قديمة لا تتصل بالنفس الانسان في نظرتها .

وقد قامت في أصولها على النظرة الخاصة ، والتحدي الذاتي ، فلم يستطع أحد من هؤلاء ولا غيرهم التخلص من عواطفه وأهوائه ، بل إن نماذج فرويد كلها كانت من مرضى منحرفين ليستخلص منها قوانين نفسية تطبق على الاسوياء .

بل إن الفكر الغربي نفسه ينقسم على نفسه ، حتى فيما يتعلق بنظريات النفس ، والاجتماع . وإن كثيراً من نظريات الوجودية تعارض العلمانية القائمة على العقل والعلم . وإن مذهب فرويد ومذهب سارتر كلاهما يفسران الحياة تفسيراً بيولوجياً ، ويوجهان السلوك الانساني ، لا على سبيل العقل ، ولكن على أساس الغريزة ، ودفع السلوك الانساني الى البدائية القائمة على تمجيد الغريزة ومناقضة العقل .

يقول وليم جيمس: إن الخوف والبلبلّة النفسية ومشكلة السلوك السكوبياتي ليست إلا وليدة إنكار الفرد على غريزته الدينية حقها ووظيفتها وتجاهله لأهميتها في الدور الذي تلعبه في السلوك الانساني ونفوره من إنمائها ورعايتها. وخطأ النظرية المادية في اقتحام ما ليس من مجالها، انها حين حاولت السيطرة على مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع واجهت الانسان، وليس الطبيعة الذي ليس هو نموذجاً مادياً، ولا تنطبق عليه تجارب الحيوان.

ومن هنا فقد كان عجزها وفشلها ومضادتها للفطرة.

إن مسائل النفس والأخلاق والاجتماع لا تدخل في دائرة العلم في نطاق الدين.

(٩)

وقد جاءت نظرية التطور المطلق معارضة للفطرة ، ولنهج الفكر الاسلامي الذي يقرر ان في الكون ثابت ومتطور « وإن في الوجود حقائق كثيرة ثابتة . وفي الكون قوانين ثابتة ، وظواهر مستمرة متعاقبة ، وإن في الحياة اتجاهات اخلاقية ومثلاً عليها لا تتبدل . وإن هناك تطور وحركة ، وكل حركة تقوم على أساس من قاعدة ثابتة ، التطور مع الاتجاه الصحيح ، التطور مع إقرار الثوابت . وإذا كان الوقوف في وجه التطور أمراً قسراً ، طبيعة الحياة كما يقولون . فإن التطور لا بد أن يدور في إطار ، وعلى قاعدة ، ووفق قانون ، وليس كل تطور حسناً ، وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه . وليس كل حاضر أفضل من الماضي ، والتطور من الناحية العقلية والصناعية أحسن ، ولكنه من الناحية الاجتماعية والأخلاقية أقل . وقد تكون ^(١) الأمم مريضة كالأفراد بعد ان كانت قوية . فالرجوع الى الماضي يكون سيئاً ، إذا كان الماضي سيئاً ، وحسناً إذا كان الماضي حسناً ، فليس كل رجوع الى الماضي مذموماً ، فالمرضى يتمنى الرجوع الى عهد صحته وقوته . وإن من المخالفة لسنن الكون في التطور اعتبار كل رجوع الى الماضي

(١) بتصرف عن الدكتور محمد المبارك من بحث له عن التطور .

رجعية مذمومة ، وهو لا يقل خطأ عن اعتبار كل تمسك بالقديم ، او رجوع الى الماضي ، مهما كان أمر حسناً ، .

يقول الدكتور محمد المبارك : إن الدعوة الى التغيير المستمر دعوة يهودية مأكرة يراد بها قلب المجتمعات ، وأحداث القلق ، ومنع الاستقرار ، وقد استغلت فكرة التطور أقبح استغلال لمحاربة الاخلاق ، وباسم التقدم والتطور لمحاربة الاسلام وتشريعه ونظمه ، ومثله العليا .

وإن محاولة نشر فكرة التطور في مجال الحياة الاجتماعية لتحطيمها . والعقائد الدينية لتهديمها ، عمل من أعمال اليهود ، وكتائبهم في اوروبا ، وأمريكا ، وهدفهم ألا يبقى شيء ثابت في الحياة مطلقاً . وبذلك تتعرض للفضائل والحقائق الدينية الكبرى . وأهمها الايمان بالله والنبوات وتعاليمها الأساسية لبقى اليهود وحدهم مسيطرين على العالم ، وليكون غيرهم في قلق دائم وثورة عارمة ، وهي دعوة منافية للحقيقة ومناقضة للفضيلة ، والمثل الأعلى ، وعائقة عن التقدم ، وهي كالدعوة الى الثبات في كل شيء ، فالحياة أقامها الله على سنتي الثبات والتغيير معاً ، ثبات في نواح وتغير في نواح .

« وقد راعى الاسلام هذه السنة ، فثبت ما يجب تثبيته من أفكار وعقائد وأخلاق ونظم . وأفسح المجال لتغيير الكثير من العادات ، وتفاضل النظم ، وإشكال الحياة والأفكار المتعلقة بحقائق الكون ، اهـ .

ولا ريب ان الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد او بغير ضابط . ولكل حركة فلك ومدار ومحور

تدور عليه . وكذلك الحياة البشرية لا بدّ لها من محور ثابت وفلك تدور فيه .

والمنهج الاسلامي يقرر ثبات أشياء كثيرة في مقدمتها ، الاخوة البشرية والعدل الاجتماعي ، وفريضة الجهاد ، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي ، ويقرر ثبات الأخلاق كما يقرر ثبات حدود الله في الربا ، والخمر ، والقتل ، والزنا ، والميسر .

(١٠)

ومن أكبر الأخطار التي يتعرض لها المنهج العلماني ، نظرية التقاء العناصر ذلك ان المنهج العلماني بالرغم من معارضته للدين بالتفسير الغربي ، فإنه يقر أكبر قواعد التفسير الغربي للدين ، وهو فصل القيم والمعجز عن الربط بينها . وقد عمقت الايديولوجية التلمودية هذا الحاجز ، ودعمته على نحو أصبح من العسير على العقلية الغربية تجاوزه او النظر فيه .

أما المنهج الاسلامي فإنه يؤمن إيماناً شديداً بالتقاء العناصر وتكامل القيم وتربط الأجزاء . ويرى في انشطارها او انفصالها او تمزقها نقصاً في النظرة المتكاملة ، وعجزاً عن التمام وقصوراً عن الاكتمال .

إن العناصر في التقائها لا تحدث الصراع كما يتصور ، المنهج العلماني وإنما تحدث التكامل ، ولا يحدث الصراع إلا التمزق لا التقاء المتشابهات .

فالدين والعلم والعقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة ، كلها عناصر تتكامل بالتقاءها ولا تتعارض . وإنما يظهر التمزق والانقسام والانشطار في أعماق النفس الانسانية نتيجة الوقوف عند عنصر واحد منها ، وإعلائه واعتباره أساساً واحداً . فالذين آمنوا بالمادة وحدها ، او العقل وحده ، إنسانهم أشبه بالذين آمنوا بالقلب وحده ، او بالحدس وحده . وفي الاسلام

تجربة استعلاء المعتزلة واستعلاء الجبرية الصوفية . وقد كان كلاهما خطراً لا حدّ له إزاء مفهوم الاسلام الجامع المتكامل .

وليس هناك تعارض حقيقي بين الروح والمادة . وإنما هناك تكامل ، وليس في اجتماع الروح والجسم في الانسان صراع ، ولكنه اكتمال .

ويظهر الاضطراب في حياة الانسان ، إذا ما تجاوز بالروح او المادة موقف التكامل والتوازن والمواءمة .

وفي منهج المعرفة الاسلامي عالمان : عالم الغيب ، وعالم الشهادة ، وهما متكاملان . بل إن حياة الانسان تمر بمرحلتين : مرحلة الحياة الدنيا دار العمل ، ومرحلة الحياة الآخرة دار الجزاء .

ولقد خلق التفسير الديني للمسيحية هذا الانفصال بين القيم ، ثم عمقته الأحداث والقوى التي عمدت الى اضواء الفكر الغربي المسيحي ، والسيطرة عليه ، حتى أصبح من العسير على الفكر الغربي أن يقبل مبدأ التكامل ، ولكننا في الفكر الاسلامي حيث نصدر عن الفطرة ، نؤمن بأن العناصر تتكامل ولا تتعارض . وان الأزمة تحدث من انشطارها . وليس من تكاملها والتقاءها .

إن أصل انسجام الفطرة فعلية استحالة التناقض بين الحقائق . فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان ، وما يناقض حقاً إذاً فهو باطل ، يجب أن ينتهي ولا ينظر إليه . إن العلمانية قد جعلت من التخصص عاملاً في تقاتل القيم وصراعها ، ذلك ان أخطر ما رمت إليه الايديولوجية التلمودية هي : « فصل العناصر » وضرب بعضها ببعض ، ومن ثم نشأت ظاهرة الانفصام والصراع والانشطارية . وجرى العمل على تأكيدها ، وتعميقها بما يعارض الفطرة ، ويتجاوز العقل والعلم ، ومنهج المعرفة الاسلامي .

وليس أخطر في هذا الاتجاه من محاولة تقديس الجنس ، وإعلاء العقل ، وعبادة البطولة ، وفصل الضمير عن العلم ، وجعل الترف والرفاهية هدفاً أساسياً بينما يضم المنهج الاسلامي الأجزاء ويربطها بالأصل .

فالجنس جزء من طبيعة الانسان ، ولكنه يجري في نطاقه مع ضوابطه ، والرفاهية لا يرددها الاسلام إلا إذا بلغت مرحلة التحلل ومجاورة الحق ، والعقل له مكانه في منهج المعرفة ، ولكنه يأتي بعد الوحي ، والاخلاق قاسم مشترك على الحضارة والعلم والسياسة والاجتماع والتربية جميعاً .

إن قول العلمانية بأن العلم سدد إلى الدين ضربات متلاحقة ، وجعله يتراجع أمامه ، هذا قول غير صحيح على إطلاقه . ذلك أن العلم لم يواجه الدين ، وإنما واجه تفسيرات الدين . وما كان دين الله المنزل من السماء الموحى به إلى أنبيائه ليعارض العلم ، أو يعارض قيم الحياة ، وما كان له أن يكون مرتبطاً بالأسطورة ، أو الخرافة ، أو السحر ، بما يطلق عليه العقلية الغيبية . وما كان لدين الله أن يكون فيه سرّ يحجب عن الناس مكشوف لبعض الناس وحدهم ، إن الدين الحق ليس مناقضاً للعلم . ذلك أن العلم منهج من مناهج الفطرة ، وهو شطر المعرفة في مجال الطبيعة والكون ، وشطرها الآخر في مجال الإنسان والنفس ، فضلاً عن أن العلم أسلوب من أساليب معرفة الله ولسوف يصبح العلم سلاحاً من أسلحة الدين ، بل إن العلم سوف يؤكد الدين الحق ، إن ما قالته تفسيرات الأديان عن الأرض والكون ليس منزلاً من السماء . إن الدين لا يقرر غير الأصول الثابتة التي لا تتغير . « لقد نشأ التعارض بين الدين والعلم في بيئة معينة ^(١) هي البيئة الأوروبية ابتداءً من معطيات معينة هي الديانة المسيحية ، فالتعارض بين الدين والعلم تعارض نشأ في بيئة حضارية معينة . كان الدين فيها أقرب إلى

(١) من بحث للدكتور حسن حنفي .

الأسطورة والغيبيات والأسرار التي تندّد عن العقل ، وتصور الباحثون ان هذا لا بدّ أن يحدث بالضرورة في الحضارات والأديان الأخرى والواقع أنه في الحضارة الاسلامية لم يكن هناك تعارض بين الدين والعلم بأن كان الدين هو أساس العلم ، وكان الدين باعثاً على البحث العلمي .

ومن ناحية أخرى ، فإن العلم قد نسب إليه زيف كثير ، حتى المذاهب الفلسفية المادية ، والنظريات الاجتماعية نسبت الى العلم ، وهو منها براء .

وقد حدد العلماء موقف الاسلام من كل ما ينسب إليه خطأ او زوراً .

يقول محمد أحمد الغمراوي : ليس كل ما ينسب الى العلم ينتمي إليه ، ولا كل ما ينتمي الى العلم مفروغ من إثباته ، بل كما ان في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة الى الإثبات .

وهناك فرض باطل مسلم به ضمناً ، هو ان العلم الحديث مبني على البرهان الحسي ، فما يقال باسمه لا بدّ أن يكون قد ثبت ، وقام عليه لدى العلم البرهان ، فهم يتقبلون كل ما ينسب الى العلم لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه .

ومن الخطأ والتجاوز معاً ان تقول العلمانية ان العلم يلغي الدين ، او ما يقوله خصومهم من أن الدين يلغي العلم ، ومنهج الاسلام في المعرفة يؤمن بأن الدين والعقل من عند الله ، فلا يرفض الدين استخدام العقل ، وهو من أدوات النظر والمعرفة .

ولا يرفض الدين العلم ، وهو حصيلة قدرات عقلية وحسية يملكها الانسان مع الطبيعة والأشياء .

فالعالم طاقة ، والدين منهج ، ولذلك فليس هناك بينها تعارض ، بل تكامل ، والدين منهج كامل للحياة البشرية ، تسمى الى تنظيم علاقات الانسان بالحياة ، وبالعالم نفسه والعالم بهذا الوضع لا يستطيع أن يدعي انه منهج ، او دين ، او يصلح نظاماً كاملاً للإنسان ، ذلك أنه لا يمكن للجزء ان يستشرف الكل (١) .

(١) من بحث للدكتور عماد الدين خليل .

(١٢)

ومنهج المعرفة في الاسلام يؤمن بأن روح العلم هو التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك به ، وان العلم شيء وتطبيقه من غير خطأ ، او خلل شيء آخر .

ومفهوم الاسلام ان المدنية شطران متكاملان : العلم ، والعدل ، ومن وراء ذلك مخافة الله ومحبة ، ووجهة المسلمين في العلم ابتغاء الحقيقة لا ابتغاء المنفعة .

وهناك حقيقة لا ريب فيها . ان قوانين العلم والفطرة والنفس والمجتمع . قد قررهما الاسلام لأول مرة في حياة البشرية كلها ، حين قرر « سنن الله » « سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وأبرز هذه السنن هو هلاك الحضارات والأمم ، إذا لم تلتزم بمنهج الدين في النفس والاخلاق والمجتمع ، ويجعل العلم والحضارة في نطاق الايمان بالله واليوم الآخر ، وقد كشف القرآن عن سنن الله في الأمم ، وسننه في إنزال

الهلاك بالجماعات التي تخرج عن قانون الفطرة المتكامل ، عن الانسان والكون معاً .

وآثار هذه السنة المضطربة باق في الارض ، بما نرى من بقايا الحضارات ، ومما دمرت به الحضارة الغربية مرتين في قوتها المادية ، وما قضي عليه من ملايين أهلها ، وما يقاسيه المسلمون اليوم من أزمات ، إنما يرجع الى هذا التخلف عن قانون الفطرة حين يلجأون الى منهج وافد يخالف لقيمهم وعقائدهم ، وذلك في اتباع المدرسة الاجتماعية في النفس والاخلاق والاجتماع بديلاً لمنهج المعرفة الاسلامي ، الذي قدمه القرآن للبشرية والمسلمين .

ومن عجب أن يلجأ الانسان الى إنشاء منهج لحياته ومجتمعه واخلاقه متجاوزاً المنهج الذي ألقى إليه . وإذا كانت بعض الأمم قد عجزت عن تفهم الفوارق بين الدين الحق ، وتفسيرات الدين ، فاضطرت الى تجاوز الدين جملة لما وجدته من انحراف واضطراب ، وأسرار وشبهات وأساطير ، مما لا يقره العقل ، ومما ليس هو من الدين ، ولكنه من تفسيراته الزائفة ، إذا كان لبعض الأمم العذر في أن تلتبس لها أيديولوجيات مادية ما زالت حياتها تضطرب بالأزمة تحت وطئها. فأبي عذر للمسلمين الذين هدوا الى الحق وأتيح لهم المنهج الذي يلتقي مع الفطرة والعلم والعقل .

وأي عذر للمسلمين والعلم الحديث يصدق اتساق الفطرة الذي جاء به القرآن ، وتأكيد اضطرابها الثابت لديه في ميادينه المختلفة بالمشاهدات

الدقيقة ، والتجارب المضبوطة (ما جرى في خلق الرحمن من تفاوت) .

ولا ريب أن اتساق الفطرة ، واضطراد السنن فيها ، واستحالة التناقض
بينها أصل ديني في الاسلام قرره القرآن قبل أن يولد العلم الحديث بعشرة
قرون « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » « ولن تجد
لسنة الله تبديلا » .

(١٣)

إن المنهج الاسلامي في المعرفة يؤمن بالغيب ، ويسلم بمحدود الله ، ويؤمن بأن العقل البشري جهاز من أجهزة كثيرة للمعرفة ، وأنه جهاز سليم في موضعه الصحيح .

فالعقل البشري لا يستطيع أن يتصور حدوداً للعالم بدءاً او نهاية ، ولا يستطيع أن يتصور شيئاً لا حدود له ، ولا أول له ولا آخر .

وتلك سمة العقل البشري التي تحول بينه وبين القداسة ، او الانفراد بالمعرفة ، انه يفهم في حدود الزمان والمكان ، ويعجز خارج ذلك النطاق .

ولذلك فالإسلام بقرر أن للإنسان من أدوات المعرفة أشياء أخرى الى جانب العقل لكي يستكمل الفهم ويستوعب النظرة الشاملة للكون والحياة والانسان . ومن تلك الوسائل : الوحي والنبوة والقرآن .

وقد وصف النبي بأنه رحمة للعالمين ، لأن الله أرسله ليرشد الانسان فيما هو خارج عن حدود العقل ، وليبدل الانسان على الأبعاد المختلفة لعالمه ، عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، والانسان وحده لا يعرف من حوله إلا جانباً محدوداً

الى آخر ما يرى نظره ، وتسمع أذنه ، ولا ريب أن الطعن في الايمان بالغيب هو هدم لنظرية المعرفة الانسانية .

وان كشف قوانين الطبيعة ، وما يقتحم فيه العلم من مجاهل الكون ، إنما هو بمثابة دليل جديد على وجود عالم الغيب ، وكشف لجانب من عظمة الخالق التي لا حد لها ، ولكن كشف قوانين الطبيعة ، لا يغني عن الاعتراف بوجود صاحب القوانين ، فإن الله سبحانه هو صانع القوانين ، وهو وحده القادر على أن يخرقها بالمعجزات .

ومن هنا فإن العلم لا يستطيع أن يتجاوز الدين ، وهو ان لم يلتمس الحدود والضوابط الاخلاقية ، فإنه يغدو طريقاً الى بربرية عاصفة ، وفي مفهوم الاسلام ، ان الحركة نحو كشف أسرار العلم يجب أن تكون محاطة بقوانين التقوى .

(١٤)

ويقوم منهج المعرفة الاسلامي على أساس الاخلاق والتقوى ، ولا ينفصل عنها إيماناً بأن العلم يصبح أداة شر إذا لم تحطه حصانة الإيمان بالله ، وهذا أخطر ما يواجه العلم والحضارة في الغرب اليوم ، وقد دق العلماء ناقوس الخطر الى ما يتهدد البشرية نتيجة تجاوز العلم والحضارة اليوم ضوابط الاخلاق والتقوى ، ولم يعد العلم موجهاً الى الحق او الخير .

يقول الدكتور قدرى حافظ طوقان : ان العلم إذا دخل مجال الاخلاق اتجه نحو الخير والبناء والنمو ، وإذا خرق نظامها ، ولم يتقيد بها أصبح أداة شر ، وهدم ، وتدمير .

ولقد تقدم العلم تقدماً نتج عنه انقلاب خطير بعيد الأثر في الحياة والعمران مكن العلم من السيطرة على مصادر الطاقة في أشكالها المختلفة ، فنمت الثروة العامة نمواً لم يحلم به أحد من قبل .

ولكن هل هذا التقدم قضى على المشاكل الاجتماعية التي يعانيها المجتمع . ان هذا التقدم زاد المشاكل الاجتماعية تعقيداً ، وسلب راحة البال ، وطمأنينة

النفس ووضع الحضارة في مركز خطر ، لماذا : لأن الانسان في تقدمه لم يحسب حساباً للخلق ومعاني الحق والواجب والمثل العليا .

إن الحكمة البشرية إذا فشلت في النهوض بعبء إدماج العلم وقواه العظيمة في أغراض الروح والخلق اتجهت هذه القوى الى التدمير والتخريب بدلاً من الاتجاه الى البناء والإنتاج والاثار والخير .

لقد أصبح شعار هذا العصر : «المادية فوق كل شيء» وطفى هذا الشعار وتضاءلت أمامه قوة الناس المعنوية ، وتلاشت به الروابط الأدبية ، وانكشفت الرحمة والعطف والشفقة في صحف الأديان ، وأشاحت الفضيلة بمزاياها عن النفس ، فإذا الانسان في غمار من الزهو والغرور يهزأ من العفة والاستقامة ، ولا ينظر الى الحياة إلا من خلال المتع والمسرات .

إن رجوعنا الى عناصر الخلق ، وإلى الفضائل الاجتماعية التي نبتت في أصول الأديان ما يضع حداً للمتاعب التي تواجه الانسان ، وتجعل من العلم أداة إصلاح وخير ، فالعلم قد وضع في أيدينا قوة إذا لم نخطئها بسياج من الخلق والفضائل انقلبت الى قوة هدامة مخربة ، لا يستطيع الانسان أن يرد عن الحياة آثامها وشرورها ومفاسدها إذا سار فيها على العلم وحده منصرفاً عن معاني الخير .

لن يخلص الانسان من ويلات العلم إذا لم ينزع الى الروحية ، ويسير على هدى الخلق ، فإن بلاء العالم في طغيان المادة وأهلها .

إن العالم إذا لم يتجه نحو الروحية والاحتفاظ بمقام الروح فوق المادة ،

وسمح للمادة أن تسيطر عليه، فلن تقوم الحضارة قائمة ، وسيبقى السلم مهدداً
والمثل العليا في خطر .

والعلم وحده لا يكفي لوضع حد لشور العالم وآثامه ، ولا يكفي
وحده للخلاص من المصاعب والمتاعب .

والعلم يجب أن يقوم على عناصر روحية ومعنوية تعلي شأن المثل العليا
والاخلاق كما يجب أن تقوم الحضارة على المعنويات ، وتوفق بين المادية
والروحانيات (١) . ذلك مفهوم الاسلام في منهج المعرفة ، وذلك هو تجاوز
منهج العلم الحديث .

يقوم منهج المعرفة في الاسلام على أصول أصيلة :

أولاً : أنه لا مكان في الوجود للمصادفة العمياء ، « إنا كل شيء
خلقناه بقدر » .

ثانياً : الأخذ في الاعتبار ، فطرة الانسان وطاقاته ، واستعداداته ،
وقوته وضعفه ، « فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

ثالثاً : ليس الوجود متروكاً لقوانين آلية صماء ، وان وراء السنن إرادة
الله المطلقة .

رابعاً : قانون الطبيعة وقانون الدين يلتقيان ويتكاملان .

(١) مجلة الرسالة ١٩٤٠ .

ملحق

رأي العلماء الغربيين في ترابط الدين والدولة
والدين والعلم في منهج الإسلام

(١)

(جورج روبير)

ان الاسلام ليس ديناً فحسب ، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ ،
وانه أيضاً وبصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي ، ونظام سياسي ، وأسلوب
للعيش . ولقد أعطى الاسلام للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ، فلا تهتق الروح
على حساب البدن ، ولا يزهق البدن على حساب الروح ، فالازدواج كامل
بين الروحية والمادية في شخصية المسلم .

(٢)

(ريتشارد هارتمان)

قلما تجد بين الأديان الكثيرة ديناً ينفذ الى حياة معتقيه كلها فردية كانت
أم جماعية مثل الاسلام ، ذلك انه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة
السياسي ، ووقي خطر التفرقة بين أمور الدين وأمور الدولة . وقد ألبس
الدين ثوب التشريع والفقہ .

(٣)

(اميل درمنجم)

الاسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية ، لا صلة لها بالمادة ، ولا بالحياة ، وإنما الاسلام عقيدة تركز على المادة والروح ، والدنيا والآخرة ، جسم ، وروح ، ودولة ، ودين ، وحياة ، وغيب . والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً لنظريات الاجتماع الحديثة ، بل لأنه يدفع الإنسان دوماً الى الامام .

(٤)

(ليوبولد فابس)

إن أهم ما أتى الاسلام تلك المآتي التي تميزه عن سائر النظم المطلقة ، هي التوفيق التام بين الناحية الخلقية ، والناحية المادية من الانسانية ، هذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الاسلام في ابان قوته أينما حل . لقد أتى الاسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة . هذه الخاصة الظاهرة في الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن نبينا كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها في المظهر الروحي والمظهر المادي .

(٥)

(هورتن)

نجد في الاسلام اتحاد الدين والعلم ، وهو الدين الوحيد الذي يوحد بينها
ونجد فيه كيف أن الدين موضوع بدائرة العلم ، ونرى وجهة الفيلسوف ،
ووجهة الفقيه سائرتين معاً بالاتحاد ، ومتجاورتين كتفاً الى كتف

(٦)

(بول دي ركلد)

الاسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية
عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب الى الفسق والفجور ، ويكفيه فخراً أنه
قدس الانسال وعظمتها ليرغب الرجل بالزواج ، ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً
وتشريعاً وان الاسلام قد حلّ بعقلية عالية عادلة ، أغلب المسائل الاجتماعية
التي لم تزل الآن تشغل مشرعي الغرب بتعقيداتهما .

(٧)

(مريسون)

إن الحق الذي لا يماري فيه أحد ، أن الاسلام أكثر من معتقد ودين ،
إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها
وتهذيبها وفنونها .

(٨)

(الزبي لستنشاتر)

الاسلام ليس ديناً فحسب ، بل هو أسلوب في الحياة ، وجد دون غيره
طريقة الى نفوس الأميين والفقراء ، وإلى نفوس المثقفين ، وإلى نفوس القادة
والساسة ، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة رغم بلوغهم هذه
الدرجة العليا ظلوا مخلصين لدينهم الاسلامي .

الراجع

محمد فريد وجدي	الاسلام في عصر العلم وأبحاثه الأخرى
دكتور محمد احمد الغمراوي	الدين والعلم وأبحاثه الأخرى
دكتور اسماعيل الفاروقي	الملل المعاصرة في الدين اليهودي
دكتور محمد محمد حسين	اتجاهات هدامة في الفكر المعاصر
دكتورة بنت الشاطيء	مقالة في الإنسان
دكتور محمد عبدالله دراز	الدين
دكتور محمد البهي	الفكر الاسلامي الحديث وأبحاثه الأخرى
دكتور عبد الحميد متولي	أزمة الفكر الاسلامي
دكتور محمد المبارك	الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية
انور الجندي	القيم الاساسية للفكر الاسلامي

هَذَا الْكِتَابُ

ومن هنا تبين لنا ان العلمانية لم تكن قاصرة على أنها دعوة الى فصل الدين عن الدولة ، وإنما ذلك في تقدير أصحاب الدعوة . هي المرحلة الأولى ، التي تهيم الفكر والمجتمع جميعاً لخطوة حاسمة هي : «علمنة الذات العربية نفسها» على أساس ان تسقط نهائياً وإلى الأبد ، كل ما يتصل بفكرها وتراثها ودينها وقيمها (القديمة كلها) وأن تعتنق المنهج العلمي ، او وجهة النظر العلمية (في تعبير البعض الآخر) وهو المنهج الذي يقوم على أساس قياس النظر الى المجتمع والنفس والأخلاق والإنسان جميعاً على النحو الذي تقاس به العلوم الطبيعية على أساس الملاحظة والتجربة .

ومعنى هذا ان العلمانية (او العلمنة كما يطلقون عليها أخيراً) هي الفكرة القائلة بأنه من الممكن دراسة الانسان والمجتمع ، كما تدرس الاشياء على أساس تطبيق وسائل الدرس والملاحظة التي تمارسها العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية .